# تاريخ التربية بتونس

١

التوزري

BOBST LIBRARY
3 1142 01418 2268

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

76-960418

Vol- 1

ابراهيم العبيدي التوزري

# تاريخ التربية بتونس

## الجزء الأول

الشركة التونسية للتوزيع

Tūzarī, Ibrāhīm al-ʿUbaydī

/Tārīkh al-tarbiyah bi-Tūnis/

ابراهيم العبيدي التوزري

# تاريخ التربية بتونس

## الجزء الأول

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

LA
1816
.T94
1900z
v.1

# الاهـــــداء

الى منقذ تونس وباعث مجدها ورائـد نهضتهـا ، الى المـربى الاول الذى قضى كامل حياتـه « فى اخـراج الانسان التونسى من حـالة اللاوعى السياسى والـوطنى حتى صيـره كائنـا سياسيـا اى شخصا مدركـا لمـا تفرضه عليـه منزلته كبشر ووضعـه كمواطـن »

الى فخامة رئيس الجمهورية التونسية

الاستاذ الحبيب بـورقيبـة

أهـدى كتـابى هذا المتـواضع

ابراهيم العبيدى التوزرى

**ان عملية التربية والتعليم هى عملية ايقاظ وتنمية وتحرير للطاقات العظمى الكامنة فى جبلة الانسان كالطاقة الذرية فى الذرة .**

**الحبيب بورقيبة**

(خطاب 30 جوان 1967 ص 28)

# تقـــديم

**بقلم : الدكتور على الشابى**

يتناول هذا الكتاب تاريخ التربية في تونس قبل الاسلام وفي ظله حتى الزحفة الهلالية ، وقد بناه المؤلف على التسلسل التاريخى نزوعا منه الى الضبط ورغبة فى افادة القارىء من اقرب طريق . وكان بالامكان ان يضع له منهاجا آخر كترتيبه على الموضوعات الا انه عمد الى تلك الطريقة لما اسلفنا ولجدة هذا الموضوع كى يسهل تتبعه والاستفادة منه . فهو ينقلك من عصر الى عصر سالكا بك سبل الدقة واليسر ، بعيدا عن التعقيد والتعسف، فلم يستقطب الافتراض الفج ولا ركن الى التخيل هناك. بعيدا فى زوايا التاريخ القديم ومعابر الماضى السحيق . بل ان المصدر يدعم الفكرة والمرجع يعضد التحليل والافتراض العلمى بربط وشائج هذا بذاك ، كل ذلك فى اسلوب رصين ينبو عن الترادف وزائف الخيال . وقد قصد المؤلف بهذا البحث ربط التونسى باصالته واسهامه واثارة شغوفه الى شخصية وطنه وامجاده التاريخية ، كما قصد به الاهتداء الى طريقة تربوية تونسية متحيزة تصدر عن الواقع وتعمل فى الآن نفسه على تزكيته والسير به قدما . فجاء هذا البحث على اختصاره مفيدا ، وعلى اكتنازه مثيرا لكثير من المحاور فى تاريخ التربية التونسية .

وبديهى ان ينطبع البحث بشخصية مؤلفه كما تنطبع التربية بالواقع الذى تصدر عنه · فان الاستاذ ابراهيم التوزرى الذى اشتغل بالتعليم فى المدارس ثم بالتفقد قد عرف فيه تلاميذه البيداغوجى المقتدر ، والمثقف الواعى · وما زلت اذكر كما يذكر تلاميذه سحر دروسه التى كان يلقيها علينا منذ عشرين سنة او ينوف ، ونفاذها الى افكارنا وقلوبنا بحيث كنا نعتبرها فى غمرة الدراسة مناط الفائدة والمتاع ، فلاشك اذا فى ان ينطبع هذا الكتاب بشخصية صاحبه فتتجلى فيه البراعة ودقة الضبط ليجد فيه القارىء طلبته وما ينشده من اسهام البلاد فى حقل التربية ·

فشكرا للمؤلف على صنيعه وهنيئا للقارىء على ما سيجد فى البحث الطريف .

**على الشابى**

# توطئـــــة

ظلت البـلاد التونسية ـ طيلة احقاب التاريخ المتعاقبة ـ مهدا تواردت فيه جميع الحضارات التى تألق نجمها على ضفاف البحر الابيض المتوسط ٠

فعلى هذا الاساس اتيح لبلادنا ان تشارك بقسط وافـر فى تشييد صرح المدنية ، فازدهرت فى ربـوعها العلـوم والمعـارف والآداب والفنون ، كما دلت على ذلـك تلك الآثـار الجليلـة التى خلدها لها التـاريخ ٠ فكانت تونس من اهـم مراكـز الاشعـاع الثقافى منذ اقدم العصور الى يوم الناس هذا ٠

الا ان تراثنا الحضارى ما زال فى حاجة مـاسة الى مزيـد من البحث والاستقصاء . وليس اولى من ابنـاء تونس للاضطلاع بهذه المهمة التى يفرضها عليهم ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ٠

وبما ان التربية هى اصل كل تقـدم فكرى اردنـا فى هذه المحاولة البسيطة ان نزيح الستار عن هذا الجانب الهام من حضارتنا الثقـافية ٠

اننا استعملنا كلمة تربية هنا فى معناها الضيق وقصدنا بها النظم البيداغوجية والمناهج والبرامج والطرق والاساليب التعليمية. كما اننا استعرضنا فى ايجاز ثلة من كبـار الاساتذة والشيـوخ الذين عنوا بشؤون التربية بتونس فى مختلف العصور ٠ وما هذا الاستعراض فى الحقيقة الا كشف لجانب من جوانب الثقافة القومية وهو يتضمن نـداء للشبـاب كى يقبلوا على الانكباب على امثال هذه

البحوث ويستقصوا غورها ويستخرجوا نفائسها .

وقد قسمنا هذا المبحث الى اربع حلقات متبعين فى ذلك التدرج التاريخى :

**الحلقة الاولى :** شملت عصور ما قبل الاسلام اى العصر البربرى الخالص ثم العصر القرطاجنى البونيقى ثم العصر الرومانى وما تلاه.

**الحلقة الثانية :** شملت العصر الاسلامى الذى يبتدىء بالفتح العربى وينتهى بسقوط القيروان على ايدى اعراب الصعيد .

**الحلقة الثالثة :** شملت العصر الحفصى حتى سقوط الدولة الحفصية.

**الحلقة الرابعة :** شملت العهد التركى الحسينى .

الا اننا اقتصرنا فى هذا الجزء الاول على تقديم الحلقتين الاوليين مع الامل بان نقدم الحلقتين الاخريين فيما بعد .

واما الايطار المكانى الذى شملته دراستنا هذه فهى افريقية ـ بالمعنى القديم ـ التى كانت تمتد من طرابلس الغرب الى موريطانيا القيصرية اى حتى مقاطعة وهران بالجزائر .

ولعلنا بهذه المحاولة المتواضعة نكون قد ساهمنا ولو بجزء ضئيل ـ فى تلبية النداء الذى القاه فخامة الرئيس الجليل الاستاذ الحبيب بورقيبة فى جمع من الاساتذة يوم 12 مارس 1964 ـ والله ولى التوفيق .

**ابراهيم التوزرى**

الباب الاول

# التربية بافريقية فى عصور ما قبل الاسلام

الفصل الاول

## التربية عند البربر

### مقدمة :

لقد ذهب العلماء والفلاسفة طرائق قددا فى التعريف بحقيقة التربية وضبط اهدافها : فمن قائل بانها تشمل كل العمليات التى ترمى الى تكامل الفرد جسميا وعقليا وخلقيا ووجدانيا ، ومن قائل بأن التربية تهدف الى ادماج الفرد فى صلب الجماعة وتأهيله لتنوىء المنزلة التى تنتظره ضمن مجتمعه، ومن قائل بان وظيفة التربية تنحصر اولا وبالذات في ابراز ما انطوى عليه الانسان فى اعماق اعماقه من خير وعدل وجمال ، ومن قائل بان التربية تؤهل الانسان لكى يصبح مؤمنا خالصا فتعرفه الله وتقربه منه .

وهكذا مهما كانت اهداف التربية ومقاصدها واشكالها فانها ترمى الى الرفع من منزلة الانسان سواء كانت التربية شخصية ام اجتماعية أم انسانية أم دينية .

ونحن نعلم ان التربية ، هذه الظاهرة الاجتماعية ، تتاثر بالبيئة اكثر مما تؤثر فيها . فكيفما كانت البيئة كانت التربية .

فهى خاضعة فى الآن نفسه للوضعية الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية وفى خدمتها غالبا . وقلما نجد التربية فارضة نفسها على الاوضاع الطبيعية والاجتماعية والسياسية والروحية كما هى الحال أحيانا فى صورة حدوث انقلابات سياسية او عقائدية .

ولم تخل اى امة او اى قبيلة بل قل اى اسرة من ممارسة تربية ابنائها ، بدائية كانت او متحضرة ، وذلك لعلمها بان فى خلود التربية خلود كيانها . فتلك الأقوام البدائية الضاربة فى ادغال افريقيا او تلك التى تعيش فى مجاهل استراليا او تحت الجليد بفيافى الاسكيمو لها انماط تربوية تلائم طرق عيشها وتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها . وكذلك كان للبربر تربيتهم التى كانت بدائية فى اقدم العصور ثم اخذت ترتقى وتسمو بفضل احتكاكهم بالامم المتحضرة التى جاورتهم او عايشتهم .

يسكن البربر او الليبيون بلاد الشمال الافريقى اى المغرب العربى بالتعبير العصرى . فهى ارض مستطيلة الشكل يكتنفها البحر من ثلاث نواح الشرق والشمال والغرب . كما تحدها الصحراء جنوبا ، وهذه اشد مراسا واصعب عبورا من البحر نفسه . فلذلك كان العرب يسمون بلاد البربر « جزيرة المغرب » .

وعلاوة على هذه الوضعية التى جعلت بلاد البربر فى عزلة ، فان سلاسل من الجبال تخترقها غربا وشرقا ، بحيث قسمت ارضها الى اجزاء قد لا تفضى الى بعضها بيسر . واما البلاد التونسية فهى تحتل الجزء الشرقى من بلاد المغرب .

فبحكم هذه الوضعية الجغرافية كانت الامة البربرية على مدى العصور مقسمة الى شعوب وقبائل متنافرة لم تجمع بينها لا وحدة دينية ، ولا وحدة سياسية ، ولا وحدة اجتماعية . واما الوحدة اللغوية فكانت مفككة .

كانت الوحدة السياسية متمثلة فى القبيلة التى كانت هى الاخرى تتركب من اسر مستقلة عن بعضها فلا تلتئم صفوفها ولا تتوحد كلمتها الا اذا ادلهم خطب او احدق خطر يهدد كيان القبيلة.

كان البربرى متعلقا باسرته الى حد العبادة يحترم قوانينها ويقدس مبادئها ، وكان شديد التمسك بمعتقدات آبائه واجداده وبعاداتهم وتقاليدهم . فتلك الخلال هى التى ميزت شخصيته ، وضمنت له حفظ كيانه على مدى الدهور والعصور .

فلهذه الاسباب الجغرافية والسياسية والاجتماعية لم تكن للبربرة تربية قومية حسب مفهومها اليونانى او الرومانى او العصرى ، بل كانت التربية عندهم تربية عائلية . فالعائلة كانت المؤسسة التربوية الوحيدة .

كانت الام تسدى الى ابنائها التربية الاخلاقية الاولى ، ذلك ان المرأة البربرية كانت تقوم بدور هام فى المجتمع البربرى .

فلقد ابرزها لنا التاريخ كقائدة ماهرة (الكاهنة مثلا) (1) او سياسية محنكة مثل (زينب الأغماطية « الساحرة ») التي تزوجت ثلاثة امراء (2) او كمربية حاذقة ( ام ملال ) الصنهاجية عمة المعز بن باديس ومربيته (3) ·

كان الاب متمما ومكملا لهذه التربية الاولى ، فقد كانت له الكلمة العليا واليد الطولى على الاسرة · فاذا تحرر الابن من ربقة الام تولى الرشداء تربيته ·

ولم تكن هذه التربية منظمة ومبنية على اسس وقواعد، بل كانت بدائية قوامها اللعب ثم التقليد والمشاركة الجماعية · فالطفل يقضى طفولته يحاكى الكبار فى تكلفه الصيد والقنص والتدريب على الحروب والصناعات وتسلق الاشجار ولربما كلف برعى الدواب ·

وعند ما يبلغ سن المراهقة واليفاعة يرى نفسه مضطرا الى القيام بمختلف الاعمال والاشغال التى يقوم بها اهل اسرته وابناء عشيرته، من حراثة وصناعة ورعى وصيد · فيدرب هكذا بصفة عملية على حياة الرشد والكهول من دون أن يشعر · فكانت مدرسته الحقيقية الحياة نفسها بما فيها من واقع ومختلف الاعمال ·

---

1) الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : كتاب شهيرات التونسيات . صفحة 10 تونس 1953
2) السلاوى : كتاب الاستقصاء فى تاريخ المغرب الاقصى . صفحة 183
3) الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب : الكتاب المذكور صفحة 39

فهكذا ظلت التربية عند البرابرة فى جاهليتهم تكاد تكون لا شعورية مقتصرة على ممارسة الحياة . فكانت تستغل نزعات الفرد الطبيعية ، وهى لعمرى التربية الاساسية فى اجلى معانيها.

واما التربية الدينية عند البرابرة فكان اساسها التقليد والمحاكاة والمشاركة الجماعية . فالطفل كان يشارك قومه فى اقامة الطقوس والحفلات الدينية ويؤدى الشعائر بصفة تلقائية .

فهكذا كان الطفل يتلقى تربية بواسطة اللعب والتقليد والتدريب والمشاركة فى الحياة الجماعية . وهو ما كان يؤهله الى الاندماج فى بيئته والانسجام مع مجتمعه الذى قدر له ان يعيش فى كنفه وبين احضانه . وهى الغاية المقصودة من كل تربية سواء كانت تلقائية او مدبرة .

واما التربية بمعناها الضيق أى التربية المدرسية فمن الراجح انها كانت مفقودة عندهم . ولكن هذا الظن لا ينفى وجود ادب شعبى عند البرابرة . بل لقد خلدت لنا اللغة البربرية وغيرها من لغات الامم التى اختلطت بالبرابرة ادبا بربريا زاهرا وشعرا رائقا تناولا جميع الوان الحياة عند البربر . فاننا فى هذا الصدد نحيل القارىء الكريم على المؤلف الضخم الذى صنفه هنرى باصى فى الادب البربرى (4) .

## الخط البربرى :

اقتبس البربر منذ قديم الزمان خطا بحروف صائتة منفصلة وضعوا بعضها من تلقاء انفسهم واستنبطوا الاخرى من الخط

(4) Henri BASSET - Essai sur la littérature Berbère

الحميرى او من الخط المصرى القديم (الكتابة الهيروغليفية) ويعرف هذا الخط بالخط اللوبى . وهو عبارة عن نقط ومطات ودوائر . وكانوا يكتبون الاسطر افقيا او عموديا فى اتجاهات متعاكسة .

وهذا الخط يوجد منقوشا على الصخور بالجهات الصحراوية وعلى مشاهد القبور فى غرب البلاد التونسية ، وشرق بلاد الجزائر ، وجزائر الكنارى ، وما زال يكتب به الطوارق انفسهم ، فالغالب استعماله عند النساء لانهن اقل امية من الرجال (5) .

وبقى الخط اللوبى القديم مستعملا حتى العهد العربى . ويظهر انه تعطل منذ القرن الثانى للهجرة عطله الخوارج وقلبوه الى خط عربى مع استنباط حروف زائدة فى لغة البربر .

واما الكتابات المنقوشة بالاحرف اللوبية بالمشاهد فقد استعصت قراءتها على علماء الآثار بالرغم من ان ما يقرب من العشرين منها لها نظيرها البونيقى او اللاطينى « فالكتابة المنقوشة الوحيدة التى تحمل تاريخها هى التى عثر عليها ببلدة دقة وهى تقابل السنة العاشرة من ولاية الملك البربرى « ماسينيسا » اى سنة 139 قبل المسيح وهى مثنوية اللغة مكتوبة باللغة والخط البربريين واللغة والخط البونيقيين (6) .

وتوجد صورة فتوغرافية لهذه اللوحة الاثرية بالصفحة 43

---

(5) Henri BASSET الكتاب المذكور : صفحة 81

(6) Histoire de l'Afrique du Nord, ch. André Julien, Tome I p. 69

من كتاب « تاريخ الجزائر » لعثمان الكعاك وبالصفحة 65 من كتاب « مدنية المغرب العربى » لاحمد صفر ٠

من الراجح ان معرفة الكتابة عند البرابرة كانت من خصائص الكهنة ورجال الدين يتوارثونها دون عامة الناس ، فلذلك لا نجدها الا على مشاهد القبور ٠

ومهما يكن من الامر فان التربية عند البربر سوف لن تستقر على حالتها البدائية : فسوف يختلط البربر باقوام متحضرة ، وسوف يقتبسون عنهم ضروبا من التربية واصنافا من العلوم والوانا من الفنون ، وسوف يبرز من بينهم علماء اجلاء، وادباء ظرفاء ، وشعراء فطاحل ، ومربون ماهرون ، ومفكرون متبصرون سيساهمون مساهمة فعالة فى بناء صرح الحضارة وتشييد هيكل المدنية على تعاقب العصور وتتالى الدهور ٠

## اللغة البربرية :

كان البربر وما زالوا يتكلمون لغة خاصة منتشرة فيما بين المحيط الاطلسى والحدود المصرية ، وهى من فصيلة اللغات الحامية المتفرعة عن السامية فلها قرابة بالقبطية والسودانية والحبشية ٠

يمكن تقسيم اللهجات البربرية الى ثلاث اسر اصلية :

١) اللهجة الزناتية التى يتكلم بها برابرة ليبيا وتونس والجزائر ما عدا القبائل والطوارق

2) اللهجة الصنهاجية وهى التى يتكلم بها برابرة جبال القبائل والطوارق الملثمون ٠

3) اللهجة المصمودية وهى التى يتكلم بها شلوح المغرب الاقصى بجبال الاطلس وبرابرة السوس جنوب المغرب ٠

« وتتفرع هذه اللهجات الى ما يقرب من اربعين رطانة قبلية » (7) ٠

منذ ان فتح العرب شمال افريقيا وعم الاسلام تلك الربوع اخذت اللغة البربرية تتقهقر امام اللغة العربية لغة الدين ولغة السياسة حتى اصبح عدد المتكلمين بها لا يتجاوز الآن السبعة ملايين نسمة ٠ فلقد تقلص ظلها تماما من الكثير من النواحى حيث لم يبق منها مستعملا الا بعض الكلمات القليلة مثل :

فكرون (سلحفاة) ، بركوس (خروف) ، كسكس (طعام معروف) ، برنس (رداء معروف) ، غنجاية (ملعقة) ، قدوارة (جبة) ، قربى (كوخ) ، قرق (خذاء من شعر) ، الخ ٠٠٠

واليكم نسبة المتكلمين بالبربرية فى مختلف اقطار المغرب العربى :

27 0/0 من مجموع سكان المملكة الجمهورية الليبية ٠

(7) Stephen GSELL. Histoire ancienne de l'Afrique du Nord Tome I. P. 309

2 0/0 من مجموع سكان الجمهورية التونسية

30 0/0 من مجموع سكان الجمهورية الجزائرية

45 0/0 من مجموع سكان المملكة المغربية (8)

## الادب البربرى :

الادب البربرى يتمثل فى ادب شعبى خصب تتناقله الرواية الشفوية ، وفى ادب علمى مدون كتابيا ٠

فالادب الشفاهى هو ما يدور على الالسن مشافهة بين مختلف القبائل من اشعار واغان ونوادر وقصص وامثال وحكم وقد عنى المتاخرون بجمعه ٠

والادب العلمى ينقسم الى ادب : جاهلى ، وينتهى بظهور الاسلام ببلاد البربر وادب اسلامى ٠

فالادب الجاهلى هو المقصود به الادب الذى ازدهر فى العصر البربرى الاول ثم عصر الاستقلال البربرى ثم العصر الرومانى فالوندالى فالبزنطى ٠٠٠

ان ادب العصر البربرى الاول، وهو السابق لحلول الفنيقيين بشمال افريقيا ، مفترض الوجود فلم يبلغنا عنه اى اثر اذا ما استثنينا النقوش الحجرية التى تحدثنا عنها آنفا ٠

(8) كتاب البربر لعثمان الكعاك : سلسلة البعث . تونس 1956

فى العهد البونيقى كان ابناء الاسر البرجوازية وخصوصا منهم ابناء الملوك يتعلمون بمدارس قرطاجنة كما يتضح ذلك من كثير من المصنفات (9) وقد برز من بين الكتاب البربريين الذين كتبوا بالبونيقية الامير البربرى هيميال (10) ٠

واما فى العهد الرومانى فقد ظهر كثير من المربين والادباء البرابرة الذين تركوا لنا مؤلفات جمة فى جميع الفنون، حرروها اما باللغة اليونانية او اللاطينية، كما سنرى ذلك عند التحدث عن التربية فى العهد الرومانى (11) ٠

وفى العصور الاسلامية ازدهر الادب البربرى سواء منه المكتوب فى اللغة العربية او فى اللغة البربرية وبحروف عربية :

ففى اللغة البربرية الف البرابرة فى التاريخ والانساب والفقه عند الاباضية كما اوجد البربر الوهابيون معجما بربريا توجد منه نسخة بجزيرة جربة ٠ فمن بين المؤلفين البرابرة المسلمين محمد او على الذى ترك لنا كتابين فى الفقه والمعاملات يسمى احدهما كتاب الحوض ٠

ومن بين كتب الخوارج التى صنفت باللغة البربرية كتاب العقيدة الذى ترجمه الى العربية ابو حفص عمر بن جميعة واخبار ابى زكريا الذى ترجمه الى الفرنسية مسكراى ٠

---

(9) Stephen GSELL - Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T. IV. P. 212

(10) BOUSQUET : Les Berbères. Que sais-je P. 86

(11) Histoire littéraire de l'Afrique Chrétienne. P. Paul Monceau Leraoux — Paris 1901 et années suivantes (6 volumes)

وفى سنة 127 هجرية ظهر متنبىء بربرى فى قبيلة برغواطه البربرية الضاربة بالمغرب الاقصى على سواحل المحيط الاطلسى بجهة مدينة سلا . فادعى هذا المتنبىء المسمى صالح بن طريف البرغواطى انه جاء باسلام جديد خاص بالبربر . وصنف قرآنا باللغة البربرية نقل ابو عبيدة البكرى بعض فصوله الثمانين . وقد بقى هذا القرآن سريا ثم جهر به وانتشر بين اهل تامسنا طيلة قرون حتى قضى عليه الموحدون فى القرن السادس .

وفى سنة 313 هجرية ظهر متنبىء آخر فى قبيلة بنى غمارة بالريف يدعى « حميم » والف هو ايضا قرآنا بالبربرية دعا اليه اهل قريته . ولكن لم تدم فتنة حميم الا قليلا حتى قضى عليها قضاء مبرما .

لم يبقى اثر من هذين القرآنين الا ما نقله الينا ابو عبيدة البكرى فى كتابه مترجما بالعربية (12) .

وهكذا كان عندنا ادب بربرى بونيقى على عهد قرطاجنة . وفى عهد الرومان وجد عندنا ادب بربرى محرر باللغة اللاطينية أو اليونانية . وبعد الفتح الاسلامى صار عندنا ادب بربرى باللغة العربية . وفى عهد الاحتلال الفرنسى ظهر عندنا ادب بربرى مكتوب باللغة الفرنسية .

---

(12) كتاب المسالك والممالك لابى عبيد الله البكرى الاندلسى المتوفى بقرطاجنة الاندلس سنة 1094 م

## الفصل الثانى

# التربية فى العهد البونيقى القرطاجنى

ليس لدينا من الوثائق ما يمكننا من التعرف على الحياة الادبية والثقافية والعلمية وعلى طرق التربية واساليبها بقرطاجنة البونيقية . فلقد تصفحنا الكثير من الكتب الموسوعة التى عنيت بدراسة العهد البونيقى ولكن لم تتعرض هذه المؤلفات الى موضوع دراستناهذه اذا ما استثنينا المؤرخ الفرنسى ستيفان قزيل الذى افرد لقرطاجنة البونيقية الجزء الرابع من كتابه الشهير « التاريخ القديم لشمال افريقيا » . وحتى هذا الاخير ، وان هو لم يتوسع فى الناحية التربوية والثقافية ، لم يخل من التعصب كما سنبينه فيما بعد .

وقد حاول الاستاذ بيكار التحدث فى شؤون التربية بقرطاجنة البونيقية فى الكتاب الذى خصصه لدراسة « الحياة اليومية بقرطاجنة فى عصر حنبعل » الا ان هذا الكتاب هو الآخر لم يتوسع فى الموضوع لقلة المصادر التى اهتمت بتاريخ قرطاجنة البونيقية .

يقول الاستاذ بيكار ما ترجمته :

« يجوز ان يظن ان التوجيه التربوى بقرطاجنة كان يرمى الى اعداد الولدان للتجارة والاسفار البعيدة · ومن الواضح ان اسر الكهنة كانت لها مدارسها الخاصة الشبيهة ببيع الربيين الاسرائليين · ففى هذه المدارس كانوا يعلمون الاحداث القراءة والكتابة باللغة الفينيقية ويحفظونهم القصائد والاحكام التى تضمنت القصص والطقوس الدينية · وكانت دراسة هذا « التورات » الفنيقى مشفعة بدراسة علم الكلام والالهيات ·

ولربما يكون من العسير تصور ارتقاء الدين الفنيقى الى مستوى التجرد النظرى كما تدل على ذلك الهياكل لو لم تكن لهذا الدين جامعات شبيهة بمدارس الاحبار او بالمدارس الاسلامية (الى حد ما) ·

وفى العهد الاخير من حياة المدينة البونيقية كانت الاسر النبيلة من غير اهل الدين تنزع الى تعليم ابنائها تعليما اكثر حرية وتسامحا · فتعلم الكثير من القرطاجنيين اللغة اليونانية بجزيرة صقلية او بقرطاجنة نفسها ··· فاستمالت المبادىء الانسانية الهيلينية (La Païdeia) البعض من هؤلاء الهمج (يعنى بهم القرطاجنيين) وحببت اليهم تثقيف ابنائهم حسب الطريقة اليونانية ·

فحنبعل العظيم درس الستراتيجية الحربية فى مؤلفات يونانية ومن المحقق انه تلقى بعض المبادىء « فى الفنون الاخرى · ويقال ايضا ان البطلة القرطاجنية سيفونسب كانت مثقفة فى الادب وماهرة فى فن الموسيقى · فهذا مما يدل على ان

النساء لم يكن محرومات من التعليم ، ولربما كان يسمح لهن بدراسة الاداب والفنون اكثر مما يسمح به للولدان الذين كانوا يوجهون منذ حداثتهم الى مختلف الوان النشاط العملى » (13) ٠

وقد نجد بعض السخافات عن تاريخ التربية والثقافة بقرطاجنة البونيقية ومنشأها ما كان وما زال يضمره الغربيون من سخرية واحتقار نحو الشرقيين ٠ ومن بين تلك السذاجات ما اورده السيد محمد فنطر فى كتابه « قرطاج » حيث يقول : « الا ان غالب البونيقيين كانوا يتعاطون التجارة والصناعة مما جعل ثقافتهم ترمى قبل كل شىء الى معرفة كل ما يمكنهم من مجابهة الحياة اليومية واقتحام صعوباتها ٠ من ذلك وجب على التاجر ان يتعلم الحساب بمقدار يكفيه حل المشاكل العملية اليومية دون ان يتوغل فى بحر الحسابيات ٠ (14)

فمن المحقق ان السيد محمد فنطر لم يبتكر هذا الحكم بل نقله عن مؤلفين غربيين يعتقدون هذا الاعتقاد خطأ أو تعصبا ٠

والحقيقة هى التى صدع بها هوباك حيث قال : « لم تترك لنا قرطاجنة تاريخا ٠ فاننا لم نطلع على تاريخ قرطاجنة الا بواسطة المؤلفين الاجانب ٠ فلو كان هؤلاء المؤرخون اجانب فحسب لأمكننا ان نعلم بصفة تقريبية ما كانت عليه قرطاجنة ٠

---

(13) Gilbert et Colette Charles Picard — La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal — Paris 1958

14) محمد فنطر ـ قرطاج ـ صفحة 59 ـ تونس 1963

ولكنهم كانوا اعداء لها ، ولم يكونوا اعداء عرضا بل اعداء الدهر ، اعداء فى قرارة النفس » (15) ٠

فكيف يمكن التوفيق بين الرواية التى تنفى وجود ادب وثقافة بقرطاجنة وبين ما نقله الينا المؤرخ الرومانى بلين القديم (Pline l'ancien) اذ قال : « بعد اكتساح مدينة قرطاجنة (من طرف الجنود الرومان) اهدى مجلس الشيوخ الرومانى مكتبات قرطاجنية الى الامراء الافارقة » (16) ثم استطرد قزيل الذى اورد هذا الحديث فقال : « ان المؤلفات التى نجت من التحطيم سنة 146 ق٠م٠ لم تظل دون فائدة لاربابها الجدد خصوصا هيامبسال (امير بربرى من آل مسينيسا) الذى يبدو انه الف شخصيا مصنفا او مصنفات تاريخية » (17) ٠

وعلاوة على ذلك فان قزيل ينفى فى الكتاب نفسه (18) وجود ادباء وعلماء بونيقيى الاصل ٠ حتى اذا ما تعرض فى الحديث الى المؤرخون صوصيلوس (SOSYLOS) وسلينوس (SILIENOS) والى قارون القرطاجنى النسابة (Charon de Carthage) والى الفيلسوفين كسينوكرات (XENOCRATE) وهيريلوس (HERRILOS) ادعى بان هؤلاء كلهم يونانيو الاصل وحجته فى ذلك « ان بنية اسمائهم تذكرنا الاسماء اليونانية » ٠

---

(15) R. HUBAC — Carthage P. 125 Ed. Bellenand — Paris 1952

(16) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord — Tome IV - P. 212

(17) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord Tome IV - P. 214 - 215

(18) Stephen GSELL — Histoire de l'Afrique du Nord Tome IV - P. 214 - 215

ان الحجة التى احتج بها قزيل تبدو لنا واهية ولا يمكن ان تثبت على اساس متين وذلك للاسباب التالية :

اولا : ان وجود مكتبات عديدة بمدينة قرطاجنة عند تخريبها يدل حتما على وجود عدد وافر من المؤلفات الامر الذى يدل على كثرة الكتاب والمطالعين ، وهذه حجة على انتشار الثقافة ٠

وهل يعقل ان تكون كل او جل هذه المؤلفات من عمل مثقفين يونان دون ابناء البلد ؟

نعم ان الثقافة الهيلينية كانت منتشرة فى كامل بلاد البحر الابيض المتوسط لكن هذا لا ينفى وجود ثقافة محلية زاهرة خصوصا بمدينة عريقة فى المجد والثراء والفنون كقرطاجنة ٠

فتغلغل الثقافة اليونانية بالبلاد الرومانية طيلة قرون لم يتناف وظهور كتاب رومانيين كتبوا فى اللغة اللاطينية مثل شيشرون (CICERON) وفيرجيل (VIRGILE) وغيرهما كثيرون ٠

ثانيا : ان بنية اسماء الاعلام السابقى الذكر ليست دليلا قاطعا على انهم يونانيو الاصل ٠ فالذين امدونا بهذه الاسماء هم يونانيون وقد كتبوها بحروف يونانية قديمة حسبما يستلزمه نطقهم من تحريف ٠ فتهلنت تلك الاسماء بطول المدة وبمداولتها بين الكتاب كما تفرنست اسماء اعلام عرب مثل (AVICENNE) ابن سينا و (AVEROES) ابن رشد و (MEIMONIDE) ابن ميمون و (RAZES) ابوبكر الرازى ، وغيرهم كثيرون جدا ٠

ثالثا : لقد افرد قزيل الجزأين الخامس والسادس من تاريخه لدراسة حياة الامراء الافارقة على عهد قرطاجنة . وذكر فى مناسبات عديدة بان الكثير من ابناء هؤلاء الامراء والاعيان تعلموا بمدارس قرطاجنة . فكان من بينهم الادباء والمؤرخون ... فكيف يتم تثقيف الابناء الافارقة بمدارس قرطاجنة لو لم تكن هناك ثقافة بونيقية وتربية بونيقية ؟ وكيف يعقل أن يتثقف الأفارقة البرابرة بقرطاجنة دون ابنائها الاصليين ؟

ان الحقيقة هى التى اوضحها هوباك الآنف الذكر . وعلاوة على ذلك يجدر بأن نتذكر ان مجلس الشيوخ الرومانى امر فى عام 146 ق.م. بتحطيم قرطاجنة تحطيما منظما ورسميا (Destruction systématique et officielle) بعد حرقها وحرث ارضها حرثا وزرعها بالملح (19) وتخريب واتلاف كل ما كان بونيقيا سواء فى ذلك البناءات والسفن والتماثيل او الكتب والتحف . فلم ينج من تراث قرطاجنة الا ما بقى دفينا تحت طبقات التراب .

وهكذا قضى الحقد الرومانى اللدود على حضارة كاملة فطمس معالمها ودك صروحها حتى درست وعفت فاصبحت لا اثر ولا عين .

وبعد هذه الحقائق التى لا تقبل الدحض يدعى الغربيون بان قرطاجنة كانت عارية من الثقافة والعلوم .

---

(19) E/F. Gautier — Le passé de l'Afrique du Nord P. 124 Payot — Paris 1952

لقد اسلفنا انه لم يبق من التراث الفكرى البونيقى الا ما نجابه الدهر ، فوصلنا مفككا مبعثرا مشوها عن طريق المؤرخين اليونان · فمن ذلك « رحلة حنون » التى قام بها الامير القرطاجنى حنون حوالى سنة 480 ق·م· فقد ترك لنا حنون تقريرا مفصلا عن الرحلة التى قام بها بحرا حتى وصل الى بلاد الكمرون · وقد نقشت هذه الرحلة على صفحة مستديرة من نحاس كانت معلقة بمعبد بعل حمون بقرطاجنة · لكن لم يبق من ذلك النص سوى ترجمته باليونانية التى انجزها شيخ المؤرخين « هيرودوتس » · فنحيل القارىء على ترجمتها العربية بالجزء الاول من كتاب « مدنية المغرب العربى فى التاريخ » للاستاذ احمد صفر: صفحة 127 · مطبعة العمل تونس 1959 ·

ومن بين المصنفات البونيقية التى طالما تحدث عنها مؤرخو اليونان لم يبق الا كتاب واحد وصلتنا منه بعض الفقرات، وهو من تأليف العالم البونيقى ماغون ، صنفه فى العلوم الزراعية ·

ان هذا المصنف يقع فى 28 جزءا ، وقد فتح مجلس الشيوخ الرومانى مناظرة لترجمة كتاب ماغون الى اللغة اللاطينية ففاز بالجائزة احد المواطنين الرومان وبعد ذلك التاريخ بنصف قرن تقريبا وعلى عهد الطاغية سيلا ترجم احد سكان اوتيكا (عتيقة) دائرة معارف ماغون الى اللغة اليونانية ·

وفى الختام نحن موقنون بان قرطاجنة البونيقية كانت عاصمة فكرية زاهرة تشع بنور ثقافتها على كامل البلاد الخاضعة

لسلطانها ، وانها انجبت الكثير من المفكرين والمثقفين الذين انتهلوا من معين مدارسها · الا ان العداوة الابدية التى كانت تناصبها رومة لها اودت بالثقافة القرطاجنية كما أودت بجميع ما كان بونيقيا حتى تامن رومة على مستقبل حياتها · فلذلك لم يصلنا من الحياة الفكرية القرطاجنية الا النزر اليسير ·

ومن المعلوم ان موسعة ماغون الفلاحية ترجمت ايضا للغة اليونانية بقلم الافريقى ديونيزوس (DIONYSIUS) وليد بلدة عتيقة (UTIQUE)

ثم ان القرطاجنى هصدر بعل (HASDRUBAL) هاجر الى بلاد اليونان حيث اسس مدرسة الاكاديمية العلمية ·

## الفصل الثالث

# التربية بافريقية الرومانية

## مقدمة

عند ما احتلت الجيوش الرومانية افريقية كانت بلادنا وقتذاك على درجة عالية من الحضارة والتقدم فى جميع الميادين ، الفكرى منها والعمرانى والاقتصادى ، كما يشهد بذلك المؤرخ اليونانى تيتوس ليفوس (TITUS LIVUS) نفسه الذى كان مصاحبا لجند شبيون حيث قال :

« لقد شاهدت الجيوش الرومانية بافريقية ضروبا من المبانى والوانا من الفنون وأساليب من الفلاحة ما ابهرهم ٠ »

وقال المؤرخ الرومانى كالوميلوس (CALLUMELLUS) ما نصه :

« ان القرطاجنى ماغون هو الاولى والاجدر (من كاتون الرومانى) بتقديرنا لانه هو ابو الاقتصاد الريفى الرومانى »٠

لقد دمر الرومان مدينة قرطاجنة تدميرا ، وخربوا كل ما كان بونيقيا تخريبا منظما ورسميا ، الا انهم لم يستطيعوا

القضاء بيسر على الثقافة البونيقية التى تغلغلت فى ارجاء البلاد وتمكنت من العقول والقلوب احقابا طويلة . وقد استمرت هذه الثقافة نافذة المفعول طيلة قرون بعد الاستيلاء الرومانى . ولربما دامت الى حين الفتح العربى كما تدل على ذلك مشاهد القبور المؤرخة بالقرنين الخامس والسادس للميلاد .

يقول الكاتب الفرنسى بول منصو فى هذا الصدد :

« بعد الاستيلاء الرومانى بقرون حافظ الافارقة على شواهد الآداب القرطاجنية التى كانوا يقرأونها بخشوع . فلقد عالجها الكثير من المؤلفين واستخلصوا منها معلومات مفيدة ، واولئك امثال صالست ويوبا والمؤرخين والجغرافيين اليونان وأبوليوس وأفيانوس والقديس اغسطيانوس (20) . فكثيرا ما نص الكاتب البربرى ابوليوس على كتاب الجغرافى القرطاجنى هاملكون الذى اخذ عنه كثيرا (بلين الجزء الثالث صفحة 169) . ويحقق لنا المؤرخ اليونانى بلوتارك ان الامير يوبا الثانى استمد عناصر كتاب التاريخ الذى صنفه من المؤلفات الافريقية (Plutarque. P. 23) كما يقول المؤرخ اللاطينى صالوست فى كتابه الذى افرده للحديث عن حروب الزعيم البربرى يوغرطا :

« ان جميع ما رويته فى التاريخ الافريقى استمددته من الكاتب البربرى هيامبسال (Salluste : la guerre de Jugurtha p. 17) . ونحن نعلم ان الامير البربرى كتب تاريخه باللغة البونيقية فى غضون القرن الاول قبل المسيح .

(20) Les Africains par Paul MONCEAUX — P. 39

ومن الثابت انه طيلة القرنين الاولين اللذين عقبا الاستيلاء الرومانى اى منذ أواسط القرن الثانى ق٠م٠ الى اواسط القرن الاول بعده لم تظهر آداب رومانية بافريقية ولم يعرف كتاب فى اللغة اللاطينية ، اذ كانت اللغة السائدة بالبلاد هى اللغة البونيقية بمعية اللغة اليونانية لغة العلوم والفنون ٠

لكن التعليم المنظم الذى جاء به الرومان ، وتكاثر المدارس الابتدائية فى جميع ارجاء افريقية البروقنصلية ونوميديا لمما جعل البربر يعرضون رويدا رويدا عن الثقافة البونيقية ويقبلون على اللغة اللاطينية لغة السلطة ولغة الادارة ٠

الا ان اللغة البونيقية لم يعف رسمها بين عشية وضحاها بل استمرت لغة للاسر ولغة للكهنة والمعابد ٠ وها يشهد القديس اغسطيانوس ان قبائل افريقية عديدة كانت فى عصره اى فى غضون القرن الخامس المسيحى تتكلم البونيقية ٠ وكانوا يسمون انفسهم كنعانيين اى فنيقيين ٠

كما ان المؤرخ البيزنطى بروكوب (PROCOPE) يؤكد ان اللغة البونيقية كانت شايعة بافريقية اثناء القرن السادس المسيحى » (21)

وما سبب اضمحلال اللغة البونيقية اليوم من البلاد الافريقية الا لما لها بالعربية من شديد الشبه ٠

(21) Stephen GSELL — Hitoire Ancienne de l'Afrique du Nord Tome IV — P. 498

على ان بقاء الثقافة البونيقية بالبلاد على عهد الرومان هو الذى سهل انتشار الآداب والثقافة الرومانية بربوع افريقية . فالامة المتحضرة هى التى تستسيغ بسهولة الثقافات والآداب الواردة عليها . فذلك هو الذى جعل افريقية تحتل المكان الاول فى ميدان العلم والثقافة من بين بلدان الجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية . فبلاد الغال مثلا (اى فرنسا) لم تهضم الثقافة الرومانية الا قليلا ولم تنتج ادباء ومفكرين على العهد الرومانى لانها لم تكن لها شخصية تاريخية وذاتية ثقافية .

وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسى قوتيه ما نصه ، بعد ان استعرض البعض من المفكرين الافارقة :

« واما غالة (اى فرنسا) فبمن لها ان تفاخر وتتباهى فى الميدان الثقافى ؟ ابذلك الكويتب (SIDOINE APOLLINAIRE) فان هذا الرجل لا قيمة له ازاء ما انجبته افريقيا الرومانية من فطاحل المفكرين والعلماء . فالرجل الغالى كان ذلك الهمجى الساذج الخالى من كل ثقافة تليدة والسهل الانقياد . واما افريقية فقد احتفظت بالبذور البونيقية التى زرعتها اقدم حضارة عرفت على وجه البسيطة . فلقد كانت لافريقية شخصيتها المخالفة لشخصية الرومان وهى شخصية ثائرة متمردة بحكم الضرورة (22) .

وبالرغم من ان الاستاذ بيكار يعارض فى استمرار وخلود الثقافة البونيقية على عهد الرومانى فاننا نراه يقول مانصه :

---

(22 GAUTHIER. — Le Passé de l'Afrique du Nord — Page 157 Payot - Paris 1952

« كان يوجد بافريقية فى غضون القرن الاول المسيحى مفكرون من ذوى اللغتين اللاطينية والبونيقية . واما اثناء القرن الثانى فكان التطاحن محتدما بين المثقفين ثقافة بونيقية وبين الذين اقبلوا على الثقافة الرومانية (23) .

وابتداء من اواسط القرن الثانى المسيحى اخذ الافارقة يظهرون على مدارج الثقافة اللاطينية وقد امتاز من بينهم كتاب وفلاسفة وادباء واطباء ونحويون سوف نستعرض بعضهم بايجاز فى خاتمة هذا الباب .

## التربية الرومانية

قبل ان يحتل الرومان بلاد الشرق وبلاد اليونان على الاخص كانت التربية عندهم تربية عائلية . فكانت الام تقوم بنفسها على تربية ابنائها تربية عائلية وشديدة فى آن واحد . وكان رب العائلة يتمم هذه التربية اذ كانت له السلطة العليا . فكان يعلم ابناءه القراءة والكتابة والحساب بالمنزل ، ويراقب تمريناتهم الرياضية ، ويشرف على تأهيلهم للحياة العمومية . وكان المراهق الرومانى خاضعا لمراقبة الاسرة المستمرة الى عهد الشباب . وكان المثل الاعلى الخلقى يسود هذه التربية المشددة التى كانت مقبلة اقبالا تاما على حب الاسرة والوطن وعبادة الآلهة .

كان كل شىء مقدسا فى العائلة الرومانية : فروح الواجب ،

(23 Charles Gilbert-Picard — La Civilisation de l'Afrique Romaine. Page : 295 Plon-Paris 1959.

والعاطفة العائلية ، والعقيدة الدينيـة ، كـل ذلك كان متحـدا ومتداخلا يشكل وحدة لا تتجزأ · فكـان الانسان فى ذلك العهـد يحـب بيتـه كمـا يحب اليـوم كنيسته (24) ·

عند ما احتل الرومان بلاد اليونان والشرق، كانت حضارتهم بدائية ، وان هى تستند الى فضائـل عائلية مكينـة · فاحتضنت رومة بصفة لا شعورية المؤسسات التـربوية الهيلينية ، وكـان ابناء الاسر الماجدة يرتحلون الى بـلاد اليونـان لتلقى الثقـافـة والآداب الهيلينية ·

والذى زاد الثقافـة اليونانيـة انتشـارا وذيوعـا ببـلاد الرومان ، وجود الكثير من الـرقيق اليونانيين بـرومة ، فأوكل لهؤلاء تثقيف الولدان · وهكذا احتلت اثينـا المغلـوبة ، بفضل ثقـافتها ، رومة الغالبة بفضل جيشها · ولسوف تظل الثقافة الهيلينية هى السائدة بالبلاد الايطالية وبالامبراطورية الرومانية طيلة قـرون ·

## التعليم بافريقية فى العهد الـرومانى

لقـد اجتهد الرومـان فى نشر ثقـافتهم بالبـلاد الخاضعة لسلطانهـم بشتى الـوسائل ، لعلمهم بان الخضوع الحقيقى لا يتم

(24 Fustel de Coulanges — La Cité Antique — Histoire des Institutions et des Doctrines Pédagogiques — SUDEL - Paris. 1955 — Page 60

وقد اورد بلميرو فى كتابه صورة لوحة منحوتة تمثل مراحل التربية القديمة عند الرومان التى كانت عائلية محضة .

وان الادمـاج العملى لا يحصل الا بواسطة الثقافة ، لا بـواسطة الحديد والنار • وفى هذا الصدد يقول روجى قال :

«••• فلذلك اضطر الرومـان الى نشر ثقافتهم اللاطينية سعيا منهم وراء ترويم « ابنـاء البلاد المقهورة على امرها فى اقرب الآجال »• وهكذا كان اول هدف تـرمى اليه التربية الرومـانية بافريقيـة هو تشبيه ابناء البلاد وادماجهم فى المجتمع الرومانى حتى يخلصوا لرومة ويعرضوا عن كيانهم القـومى • فكان الهدف لهذه التربيـة سياسيا اولا وبالذات (25) •

كان التعليم فى العهد الرومانى على اربـع مراحل ، مرحلـة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة ثالثة ومرحلة عليا •

## التعليم بالمرحلة الابتدائية

كانت المدارس الابتدائية منتشرة بكامل البـلاد الافريقية بما فى ذلك المـدن والقرى والاريـاف • وكانت هذه المـدارس بسيطة جـدا شبيهة بكتاتيبنا اليـوم او ابسط من ذلك • فكان المجستـر اى المعلـم (Majister او Litterator) يقـوم بتعليمـه فى دكـان بسيط يستأجره مما يتوفر لـديه من الاجـر الذى كـان يتقاضاه من تلاميذه اسبوعيا او شهـريا • وكان المجستر عـادة فقير الحال ، وكانت مهنته من اشق المهن عمـلا واقلها ربحـا • واما ثقـافته فكانت متوسطة او دون ذلك حيث ان تعليمه كـان

(25 Roger Gal. Histoire de l'Education. Que sais-je ? Page 45

مقصورا على مبادىء القراءة والكتابة والحساب · فذلك هو برنامج التعليم الابتدائى فى ذلك العصر ·

واما طرق التعليم فكانت بدائية : فكان الولدان يتعلمون حروف الهجاء حرفا حرفا ، ثم يدربون على تركيب الكلمات ، فتأليف الجمل · واما دراسة النصوص فكانت من خصائص التعليم الثانى والثالث (26) · ولتعليم الكتابة كان المعلم يمسك بيد المتعلم المبتدىء ويوجهها · ولربما كانوا يناولون صغار التلاميذ قطعا من الحلوى فى شكل حروف · وكان التلاميذ يعتمدون الحافظة الى حد بعيد ، وكذلك التقليد والتنافس · وكانوا يكتبون عادة على لوحات من الخشب الصقيل او من الشمع ، وفى بعض الاحيان كانوا يكتبون على شقف من الخزف المشوى · واما الاقلام فكانت مبرية من القصب مثل اقلام الكتاب تماما · وكان الحبر يوضع فى محابر من الخزف شبيهة جدا بالتى نستعملها بمدارسنا اليوم ، وقد نشر الاستاذ بيكار صورا لهذه المحابر فى مجموعته التى اسماها (CASTELLUN DIMMIDI) ـ الجزء الاول اللوحة عدد 8 ·

وكان الصبيان يجلسون على مقاعد خشبية بسيطة حول المجستر الذى كان يستوى على اريكة موضوعة على دكة يشرف منها على جميع التلاميذ · وقد كان يساعده احيانا مكرر من قدماء التلاميذ (27) ·

---

(26 Voir Quintilien — De la formation de l'orateur. Livre ll — Traduction de Nisard.

(27 Marrou — l'Histoire de l'Education dans l'antiquité page 362

لم يكن الضرب محجرا بالمدارس فى ذلك العهد ، بل كان المعلمون يبدون شدة نحو الاطفال · فكانوا يضربونهم باليد او يجلدونهم بالدرة ، ولم يكن الجلد على الرجلين كما كان الحال بكتاتيبنا بل كان الطفل يجلد على ما غلظ من جسمه العارى · فبينما يحمل احد التلاميذ الطفل المعاقب على ظهره يمسك آخر برجليه ، وعند ذاك يشرع المجستر فى ضرب الجسم العارى (28) حتى ان الاطفال كانوا يكرهون التعليم ويستعملون ضروب الحيل للتخلص من دروس المجستر · وفى هذا الصدد يقول القديس اغستيانوس فى الصفحة 24 من الجزء الحادى والعشرين من كتاب « مدينة الاله » (La Cité de Dieu) ما نصه :

ان العمل المفروض على التلاميذ بحد العقاب امر مؤلم الى درجة ان الصبيان كانوا يفضلون احيانا الم العقاب على العمل المضنى · ومن ناحية اخرى فلو خير المرء بين العودة الى صباه وبين الموت لفضل الموت » ·

كان الصبيان يؤممون المدرسة صباحا ومساء ، وكانت العطلة السنوية تبتدىء فى اواخر شهر جويلية وتنتهى فى اواسط شهر اكتوبر ·

والى جانب هذا التعليم المدرسى كان الاطفال ، مهما كانت

---

28) انظر الصورة التى اوردها الاستاذ احمد صفر فى الصفحة 359 من الجزء الاول من كتاب « مدنية المغرب العربى » الآنف الذكر .

مراحل التعليم التى ينتمون اليها ، يقصدون كل مساء النوادى الرياضية . فالرياضة كانت فرضا واجبا على كل تلميذ وكل طالب .

## التعليم بالمرحلة الثانية

بعد ان يتحصل الطفل على مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، يوجه الى التعليم الثانوى ، وقد ناهز الثانية عشرة من سنيه . وكانت بجل القرى والمدن الافريقية مدارس ثانوية تسمى (LUDUS) . فاكبر الكتاب والمفكرين الافارقة تلقوا تعلمهم الثانوى بمدارس قراهم . فهكذا تعلم الكاتب البربرى الشهير ابوليوس (APULEE) بمدرسة مسقط راسه قرية مداوروش (بالجزائر) كما ان القديس اغستيانوس تلقى تعلمه الثانوى بمدرسة بلدته ثاقاست (بالجزائر) .

وغالبا ما كان الاستاذ وليد البلدة نفسها . واذا ما فقد استاذ من ابناء البلدة سعى الاعضاء البلديون الى جلب اساتذة من الدوائر البلدية المجاورة او البعيدة . وكانوا يجرون مناظرة على الراغبين فى التدريس . ولكن اذا ما فقدت المزاحمة بفقدان المترشحين انتصب الراغب الوحيد باحدى البناءات العمومية طيلة يوم كامل تحت طلب كل من يريد ان يختبر معلوماته (29) .

كان الاستاذ غالبا فى مستوى وظيفته ، كما تدل على ذلك بوضوح مشاهد القبور وخصوصا مؤلفاتهم . فلقد نبغ من

(29) La Civilisation de l'Afrique Romaine par Gilbert Charles Picard — Page 300

بين هؤلاء الاساتذة الاقليميين عدد وافر سوف نستعرض البعض منهم فيما بعد ٠

لم تكن مهنة الاساتذية لتدر على صاحبها الغنى ، بل كانت كغيرها من المهن الفكرية تقوم بصاحبها الى حد الكفاف ٠

كان التعليم الثانوى مثنوى اللغة ، فكان الطلاب يتعلمون اللغة اللاطينية واللغة اليونانية معا ٠ وقد كانت هذه الاخيرة تحظى بالاسبقية حتى حدود القرن الاول المسيحى ، لانها لغة العلوم والآداب والفلسفة ، لكن طغت عليها اللغة اللاطينية فيما بعد لسبب حاجة الناس اليها فى الحياة العامة ، ولان كتابها تكاثر عددهم وقد نبغ منهم الكثيرون٠

كانت برامج التعليم تشتمل على مواد متنوعة مثل تفسير النصوص ، والنحو ، والعروض والموسيقى ، والعلوم الطبيعية والرياضية. واشهر الكتاب الذين كانت تدرس نصوصهم ضمن البرامج هم شيشرون وفرقيلوس وصالوست وتبرنشى . ولكن الطلبة الافارقة كانوا يفضلون النصوص المستمدة من كتاب افارقة او من كتب تتحدث عن الحياة الافريقية . فمن بين نصوص صالست كانوا يفضلون تاريخ الامير البربرى يوغرطا ، ومن بين مؤلفات فرقيلوس كانوا يتعشقون قصائده التى تحدث فيها عن الاميرة عليسة مؤسسة مدينة قرطاجنة ٠ واما الكاتب البربرى ابوليوس المداوروشى فكان معبودهم الذى لا يملون دراسته ابدا.

وقد بلغ هيام الافارقة بكتابهم ان خصوا الجزء الثانى من

مجموعة النصوص الادبية التى كانت تدرس بمدارس قرطاجنة الثانوية بكتاب كلهم افارقة (30) ٠

واما طريقة تدريس النصوص فكانت بسيطة ، اذ كان الاستاذ يتناول النص بالقراءة والشرح تباعا ، ثم يامر الاطفال بالقراءة الواحد تلو الآخر (31) ٠

كانت المدارس الثانوية انواعا ، منها المدارس الحرة التى كان يتعلم فيها الطلبة مقابل اجر يدفعونه لاستاذهم مشاهرة ، ولم تكن هذه المدارس خاضعة لرقابة الحكومة او البلديات ٠

وكانت هناك مدارس بلدية تنفق عليها البلديات وتراقب برامجها وسير التعليم فيها ، كما كانت توجد مدارس اسسها الخواص من محبى العلم وحبسوا عليها الاحباس ٠

واما التعليم الحكومي فلم يظهر الا فى غضون القرن الثانى المسيحى حيث اخذت حكومة الاباطرة تهتم بشؤون التعليم ، فسنت قانونا يقضى بان تتكفل الحكومة الرومانية بشأن التعليم ومراقبته وبالانفاق عليه (32) ٠

وكان الاساتذة مثل الاطباء العموميين معفون من تكاليف عديدة كالضرائب والخدمة العسكرية وايواء الجنود ٠

---

(30 Saint-Augustin — Les Confessions Tome I — Pages : 13 — 16

(31 Marrou — Histoire de l'Education dans l'Antiquité

(32 Paul Monceaux — Les Africains — Page 75 Paris 1894

وكان الاباطرة الرومان لا يدخرون جهدا فى نشر المعرفة . فكانوا يشيدون المدارس، وينتدبون الاساتذة . « وقد خصص الامبراطور اسكندر سيفيروس (البربرى الاصل) اعانة مدرسية للطلبة من ابناء الاسر الفقيرة » (33) .

## التعليم بالمرحلة الثالثة

كان يتولى التعليم بالمرحلة الثالثة استاذ البلاغة الريتور (Le Rhétor) فبعد ان يتم الشاب تعلمه الثانوى يقصد مدرسة البلاغة التى كانت تعنى على الاخص بتعليم الطلاب الفصاحة والبلاغة التى كانت شرطا واجبا ليعد المثقف مثقفا . فكان على كل مواطن ان يسعى جهده لاكتساب القدرة على الخطابة فى الساحات العمومية ، وذلك سعيا وراء الاحراز على شرف العضوية بالمجالس البلدية والقدرة على المرافعة لدى المحاكم والمؤسسات العمومية للدفاع عن حقوقه .

فلذلك كان يوجد اساتذة فى البلاغة فى كل قرية وفى كل بلدة . وقد دامت هذه المؤسسات حتى القرن السادس بعد المسيح . فلقد عثر الاستاذ بيكار باطلال مكثر (بتونس) على لوحة رخامية تحمل اسم البليغ (ALURIUS GEMINUS) (34) .

وكان يشترط فى استاذ البلاغة ان يكون ذا ثقافة واسعة .

---

(33 id. id. id. Page 62 Paris 1894

(34 Bulletin de l'Afrique Chrétienne. 1950 — Page 160

حاويا لشتى العلوم قوى الحجة حتى يمكنه ان يسدد رغائب جميع الطلبة الذين يفدون عليه ، مهما كانت ميولهم ورغباتهم ونزعاتهم ٠

ولم تكن مدرسة البلاغة مقتصرة على تعليم البلاغة ، بل كانت تدرس ايضا التاريخ والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية والشعر ٠

ومن المعلوم ان هذا التعليم الممتاز كان من خصائص ابناء الاسر الثرية والنبيلة الذين كانوا يتأهلون اما للوظائف السامية او للخطط الحرة كالمحاماة ٠

## التعليم العالى

بعد ان يتم الطالب تعلمه الثانوى والثالث يؤم جامعة قرطاجنة الشهيرة وقد ناهز السادسة عشرة من سنيه ٠

قبل التحدث عن جامعة قرطاجنة لعله من الجدير ان نستعرض مراكز ثقافية افريقية اخرى ازدهرت فيها الآداب والفنون اليونانية بصفة جديرة بالاهتمام ، وذلك طيلة القرنين الأولين الذين عقبا الاستيلاء الرومانى على افريقية ٠

فى تلك الحقبة من الزمن لم تكن قرطاجنة التى بعثت من جديد مركزا للثقافة والفنون ، بل كانت مدينة شرشال عاصمة

موريطانيا (35) وقتذاك هى التى تشع بالثقافة الهيلينية . فكان المتربع على عرش هذه المدينة فى النصف الثانى من القرن الاول قبل المسيح الامير البربرى يوبا الثانى الذى اعتنى يوليوس قيصر بتثقيفه . فكان متضلعا فى الفلسفة والنحو والبلاغة والتاريخ ، وله مؤلفات عديدة حررها باللغة اليونانية ، وعلاوة على ذلك فقد كان نقادا فنيا (36).

واذ كانت ثقافة هذا الامير يونانية عمد الى جلب اساتذة يونان الى عاصمته ، ولف حولهم ثلة من الشباب الافريقى . فعمت الثقافة الهيلينية ربوع افريقية الرومانية بوجه عام وموريطانيا بوجه خاص .

ومن المراكز الثقافية الهامة الجديرة بالذكر مدينة قرطة (CIRTA) (قسنطينة) ومداوروش (MEDAURUS) وشقب النار (SICCA VENERIA) (الكاف) وحضرموت (HADRUMETE) (سوسة) بلد البانوس الذى طمح الى التربع على عرش رومة ، وليبتيس مغنا LEPTIS MAGNA (هنشير لبدة بطرابلس الغرب) بلد سبتيموس سافروس البربرى الذى كان امبراطورا برومة. وكل هذه المراكز الثقافية كانت متأثرة بالعلوم الانسانية الهيلينية الى حد بعيد .

وما تاخرت مدينة قرطاجنة عن ركب الثقافة طيلة القرنين الاولين اللذين عقبا الاحتلال الرومانى ، الا لان الرومان

(35) لم يكن لكلمة موريطانيا مدلولها اليوم بل كانت موريطانيا تشمل غربى الجزائر والمغرب الاقصى وكانت عاصمتها الشرقية مدينة شرشال وعاصمتها الغربية مدينة طانجة

36) راجع كتاب مدنية المغرب العربى للاستاذ احمد صفر ـ مطبعة العمل ـ تونس 1959

الذين كانوا منتصبين بها كانوا رجال اعمال، اموا البلاد الافريقية للاثراء ، فشغلتهم الحياة المادية عن الحياة الفكرية • فكانوا يعنون بالبناءات الضخمة والطرقات والجسور والفلاحة اكثر من اعتنائهم بالنشاط الفكرى •

ولكن ابتداء من القرن الثانى المسيحى اخذت مدينة قرطاجنة تستعيد مجدها الثقافى وتحتل المكانة اللائقة بها فى ميادين العلوم والآداب والفنون ، وقد ذاع صيتها وعلا كعبها فى المضمار الثقافى حتى « اخذت الوفود الحشيدة تتقاطر عليها من كل حدب وصوب مؤممة مختلف كليات جامعتها التى طبقت شهرتها العالم الرومانى باسره ، حتى انها اصبحت تفاخر وتنافس جامعتى رومة واثينا » (37) •

كانت برامج التعليم فى جامعة قرطاجنة متنوعة جدا، فكانت تشتمل على جميع مناحى التفكير البشرى ، من آداب ، وفلسفة ، ولغة ، وحقوق ، وطب ، ورياضيات ، وفنون جميلة كالموسيقى ، والرسم، والنحت وكانت اللغتان اليونانية واللاطينية تستعملان على حد السواء (38) •

وكان الطلبة شغوفين بالخطابة والفصاحة والشعر ، الا انهم كانوا على غاية من التهور والجموح • فكانوا يحدثون الهرج فى انحاء المدينة ويعتدون على السابلة ويرتكبون كل ما تمليه عليهم نزوات الشباب الجامح •

---

(37 Paul Monceaux — Les Africains — Page 58

(38 id. id Page 6

ومع ذلك كانت جامعة قرطاجنة على درجة عالية من الحيوية والنشاط ، وكان اساتذتها يفاخرون بهـا • واليكم ما يقـوله الكاتب المداوروشى ابوليوس الذى كان من ابرز اساتذة الجامعة القرطاجنية ، وقد وقف خطيبا يوم احتفال الجامعة السنوى، وسط جمع من الطلبة والاساتذة ، وهذا ما يـدل على اعتزاز الافـارقة بجامعتهم وبمدينتهم الخالدة :

« اى داع للشرف اعظم من الاحتفال بقرطاجنة ؟ فانى لا ارى من بينكم فى هذه المدينة الا رجالا مثقفـين ومتبحـريـن فى شتى العلوم ، ولا اشاهد من بينكم الا ولـدانا راغبـين فى الكـرع من مناهـل المعرفة ، وشبانا مقبلين على معين العلم، وشيوخا متصدين لنشر الثقافة . فياقرطاجنة ، ياعاصمة قطرنا المقدسة ـ قرطاجنة يا ربة الالهـام الافريقى ـ قرطاجنـة يا ام الشعب الذى ارتـدى حلة المجد ••• (39)

يبدو انه لم توجد بناية خاصة حـاوية لمختلف الكليـات ، وانما كانت كل كلية على حدة على غرار جامعة رومة • ومن المعلوم ان كل كلية كانت مجهزة بمكتبة وضعت مصنفـاتهـا تحت طلـب الاساتذة والطلاب •

## الهجـــرة الى الخـارج

——«o»——

وما كانت جامعة قرطاجنة ، على ذيوع صيتها وعلو كعبهـا

(39) Les Florides Chapitre IX — Page 9

ووفرة علومها ، لتشفى غليل الشبان الافارقة المتعطشين للمعرفة . فلقد كان الكثير منهم يولون وجوههم شطر البلاد الايطالية او اليونانية للاستزادة من العلوم والاختلاط بالاقوام الاخرى والتعرف على العالم .

واما الاساتذة فكانوا يهاجرون هم ايضا الى رومة ومستعمراتها عارضين بضاعتهم العلمية طلبا للرزق ، وكان لهم فى ذلك سوق رائجة وربح وفير .

## المراكز الثقافية الاخرى

لم تكن معاهد التعليم وحدها مراكز لنشر الثقافة والعرفان ، بل كانت هناك علاوة على المدارس والجامعات مراكز ثقافية اخرى ، وتلك كالمكتبات العمومية ، فمكتبة قرطاجنة التى لم يعرف موقعها بالضبط حتى الآن كانت تضم مئات الآلاف من المجلدات .

ومما يدل على اهمية المكتبات واعتناء الناس بها هو ان المواطن (FLAVIUS) فلافيوس وهب مكتبة تمقاد (بالجزائر) 400 000 مجلدا (40) .

لم يهتد الاثريون الى التعرف على موقع مكتبة قرطاجنة بصفة مدققة ولكن بالتنظير والمقارنة بمكتبة تمقاد يمكن ان نتصور ما كانت عليه المكتبات العمومية فى ذلك العصر .

(40) Charles Courtois — Timgade — Page 25

كانت المكتبة تشتمل على بهو تحيط به حنايا واساطين ، وعلى قاعة فى شكل نصف دائرة تصطف على جوانبها خزائن الكتب. وبوسط الجدار الهلالى الشكل محراب ياوى الالهة مينرفة حامية الحكمة (41) ٠

نعم لم يكن بجميع المدن امثال هذه المكتبة الفاخرة ، لكن كانت بكل مدينة وبكل قرية حمامات ، وكان يوجد بكل حمام ضروب من وسائل التسلية والترفيه والتثقيف ، من بينها المكتبات العمومية ٠ فلربما قضى المواطن بياض يومه فى الحمام حيث يستحم ويتسلى ويلهو ويطالع ويقصف ويشرب ٠

وكذلك كانت المعابد والهياكل الدينية تحوى مكتبات يطالع كتبها القساوسة ومن ينتمون الى الدين ، ولربما عموم الناس ايضا ٠

واما المحاضرات والمسامرات فكانت تلقى بقاعات التحاضر ، واذا ما فقدت هذه القاعات ببلدة اتخذوا المسارح لهذا الغرض ٠

وبهذه المناسبة نذكر على سبيل التفكه الدعابة التالية :

ان السير ونستون تشرشيل ، رئيس الحكومة الانكليزية ابان الحرب العالمية الثانية. زار البلاد التونسية اثر جلاء جيوش المحور عنها ، واراد ان يجتمع بجنود الجيش الثامن الانكليزى ليهنئهم بالنصر الذى كسبوه ٠ وكان وقتئذ مقيما بمدينة

---

(41) id. id. Page 26

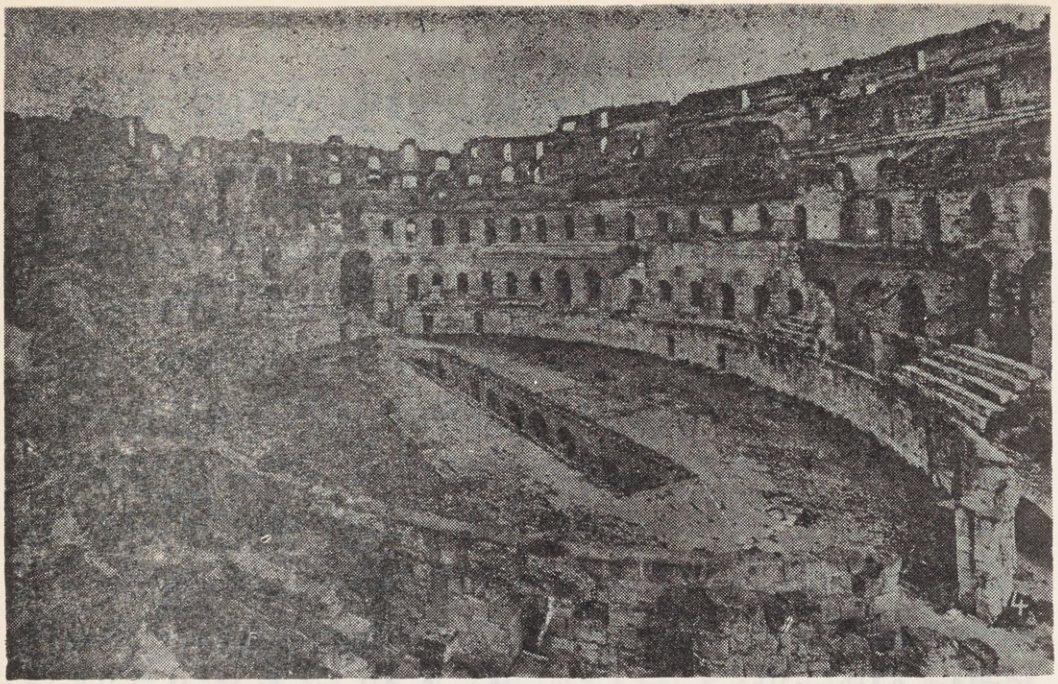

ملعب الجم

مسرح دقة

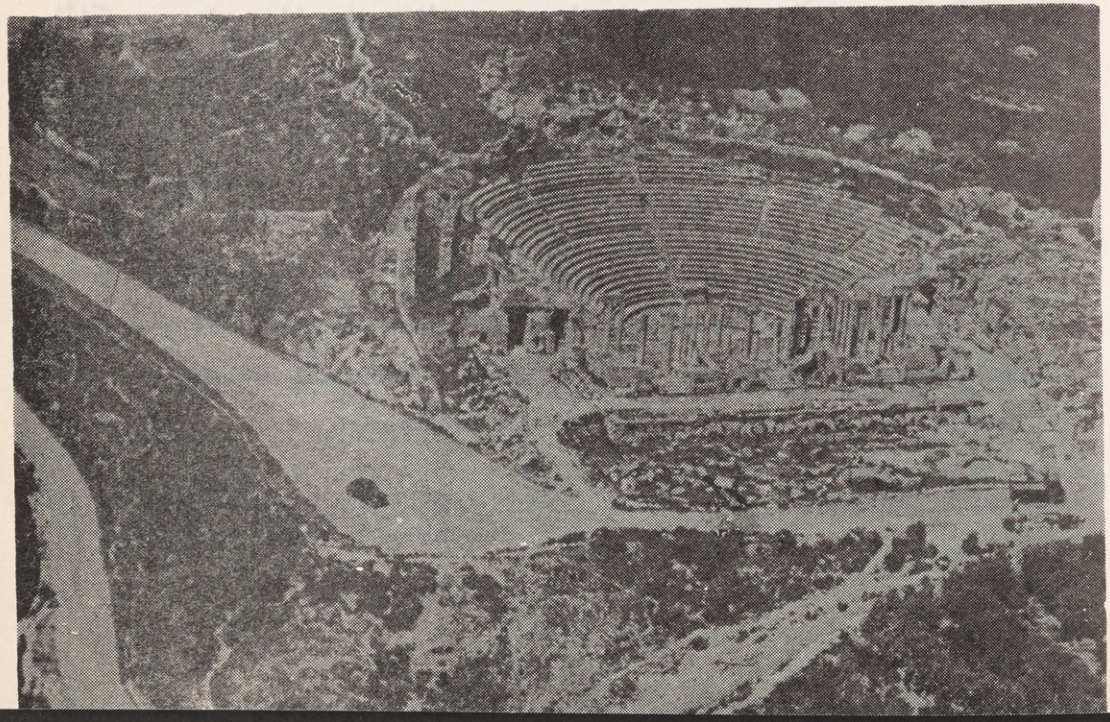

قرطاجنة ، ولم يكن بها فى سنة 1943 قاعة للتحاضر فجمعهم بالمسرح الرومانى وخطب فيهم .

واما الموسيقى فكانت تستلزم قاعة مغلقة مبنية على شكل خاص وتسمى اوديون (ODEON) . فكانت قرطاجنة من المدن الرومانية القليلة التى كانت مجهزة بهذا النوع من الاستديوهات . وقد بنى هذا الاوديون البروقنصل (Vigellius) SATURNIUS) باذن من امبراطور رومة (Septimus SEVERUS) البربرى الافريقى (42) .

ومن اكبر المعاهد الثقافية العمومية المحببة للشعب المسارح (Théâtres) والملاعب (Amphithéâtres) . وما كانت مدينة من المدن او قرية من القرى تخلو من مسرح ، الامر الذى يدل على انتشار الثقافة فى العهد الرومانى ، وتذوق الشعب الانتاج الفكرى ، فمن المسارح التى ما زالت قائمة الذات الى حد الآن مسرح قرطة ودقة وتمقاد وشرشيال وسبيطلة والجم والقصرين ولبده وغيرها . وكانت الروايات تمثل نهارا ، واما المسارح فكانت غير مسقفة .

وأكبر ملعب شيد بافريقية الرومانية ملعب الجم (بتونس) الذى دام بناؤه من سنة 230 بعد المسيح الى سنة 238م وهو يسع 30 000 مقعد للمتفرجين (43) ولكنه على عظمته

---

(42 Colette Picard - Carthage P.P. 43 et 95

43) ضبط هذا العدد المهندس الكسندر ليزين Alex. LEZINE بالعدد 31 ـ السنة الثامنة من مجلة Les Cahiers de Tunisie تونس 1960

ياتى فى المرتبة السادسة بعد ملاعب شيدت بالبلاد الايطالية ٠

وقبل التحدث عن اشهر الاساتذة الذين كانوا يدرسون بمختلف المعاهد العلمية والفنية الافريقية ، لعله من المناسب الالمام ولو فى ايجاز بادوات الكتابة التى كانت تستعمل بافريقية فى العصر الرومانى :

الرق : ان الجلود الحيوانية اقدم وسيلة عرفت للكتابة خصوصا عند الفرس وبنى اسرائيل وهى ما تسمى بالرق ٠ فكان الكاتب فى العصور الاولى لا يستطيع الكتابة الا على وجهها الباطنى فلذلك كانت تدحرج ادراجا ٠ ثم ترقت صناعتها من الناحية الفنية فاصبحت ملساء يكتب على وجهيها الباطنى والخارجى وهذا النوع يدوم اكثر من الرق كما عرف اولا ، وكان فى الامكان تسفيرها على شكل كتاب ، وكان فى المستطاع ايضا مسح كتابتها ليكتب عليها من جديد (44) ٠

البردى : ان شجرة الكاذغ لم تنجح فى اى مكان نجاحها فى دلتا النيل بالبلاد المصرية حيث فقدت منها اليوم ، ولكنها ما زالت باقية الى حد الآن بجزيرة صقلية حيث وطنها العرب فى غضون القرن العاشر المسيحى (القرن الثالث للهجرة) ٠ وهى عبارة عن نوع من القصب يبلغ ارتفاعه اربعة امتار ونصفا تقريبا وتحمل مجموعة من القنى المثلثة الشكل تحوى نسيجا خلويا بداخله لباب هو المادة الاولية لصنع الورق ٠

(44 Mommser — La Vie privée des Romains — Tome 15 Traduit de l'Allemand par Victor Henry Tome ll P.P. 489 — 490

يقد ذلك اللباب سيورا على غاية من الجودة والدقة ثم تصفف تلك السيور متوازية على لوحة مبللة بالماء ، وعلى هذه الطبقة التى سبق ان دهنت بملصق نشوى تصفف طبقة اخرى من السيور الدقيقة فى النحو المعاكس بحيث تتصالب السيور السفلى والعليا على زاوية قائمة مثل سدى النسيج ولحمته ، ومن الراجح ان توضع هذه الطبقات فى مكبس وتدق وهى ندية ، ثم تعرض للشمس لتجف ، واخيرا تصقل لازالة ما قد يعلق بها من الاجسام الغريبة ٠

فى العصر الرومانى كانت صناعة البردى من خصائص البلاد المصرية وخصوصا الاسكندرية ٠

لم تكن الكتب معروفة فى القديم بل كان الرق او البردى على شكل ادراج تدحرج وتوضع فى كنانة ٠ فكان الكاتب او القارىء يبسط تباعا الدرج الملفوف حول محور من الخشب ٠ وكان عندما يريد الكتابة لا يستعمل منضدة او مكتبا بل كان يضع الورق فى حجره على ركبته (45) مثل الكتاب العموميين الذين نقشت صورهم على الاهرام ٠

---

(45 Mommser — La Vie privée des Romains — Tome 15 — Traduit de l'Allemand par Victor Henry Tome II — Page 475

# الفصل الرابع

## رجال الفكر الافارقة فى العهد الرومانى

ان رجال الفكر الافارقة الذين أنجبتهم افريقية الرومانية لا يحصى لهم عديد · فلقد نبغوا فى كل الميادين الفكرية ، وانتجوا انتاجا غزيرا رائعا فى جميع مناحى التفكير البشرى ، وكانوا يحررون مؤلفاتهم باليونانية فى العهود الاولى ، ثم فى اللغتين اليونانية واللاطينية فى العهود الوسطى ، واخيرا اقتصر اغلبهم على اللغة اللاطينية فى العهود الاخيرة اى عهود الانحطاط السياسى الرومانى ·

كان الكتاب الافارقة خطباء وفصحاء وبلغاء اولا وبالذات ، وقد تعاطى اغلبهم التدريس بمسقط رؤوسهم وبقرطاجنة ، وحتى برومة ومستعمراتها ·

لم يطل عصر التقليد عندهم ، بل لم تعمر تبعية الآداب الافريقية للآداب الغربية طويلا · فابتداء من فجر القرن الثانى الميلادى اخذت الآداب بافريقية الرومانية تتقمص شخصية مستقلة تتسم بسمة شرقية افريقية عريقة تميزت عن الطابع الرومانى بصورة جلية · ذلك ان الافارقة شرقيون قبل كل شىء ، وقد اثر فيهم الشرق تاثيرا عميقا منذ دهور واحقاب · فكان

الكتاب الافارقة يتميزون بثراء الخيال وسعته، وبحساسية رقيقة تعلوها احيانا مسحة من الكآبة والتأسى · وكانوا يعربون عن تأثرهم العميق بمشاهد الطبيعة · كما ان الآداب الافريقية كانت مفعمة بروح التصوف ، وهذه ايضا ظاهرة شرقية · ومن المتناقضات الداعية للاعجاب ان تكون هذه الآداب رغم نزعتها الصوفية تميل الى الروح العملية فكان غالبها يرمى الى غاية معينة ويهدف الى اقناع القارىء واستهوائه ·

واما اسلوبهم فكان هو الآخر اسلوبا شرقيا رنانا فى لفظه مفعما بالصور الخيالية والتشابيه والكنايات ، مدبجا بالمجاز ، وموشى بالاستعارة ، فلم يخل من المبالغة فى التعبير والامعان فى التصوير ·

وكان الكتاب الافارقة يعتزون بقوميتهم ويتجاهرون ببغضهم للرومان كما سوف نرى ذلك فيما بعد ·

وكان الرومان يستهجنون هذه الآداب الافريقية ويحتقرونها وينسبون اليها فساد الذوق ويرون انها غير فصيحة فى مبناها بل محررة فى لغة مبتذلة ومتأثرة بالرطانة الاقليمية وبعيدة فى روحها عن الذوق الرومانى ·

ولكن ما ان توسط القرن الثالث المسيحى واغتصب الافارقة الملك من يد الرومان وتربع ابناء افريقية على عرش رومة حتى طغت الآداب الافريقية على الآداب الرومانية الاصلية ، فاضفت عليها روحها وفرضت ذوقها وخلعت اساليبها على الرومان

الذين اصبحوا مقبلين عليها اقبالا ملحوظا خصوصا وان الهيلينية المنبعثة استأنفت زحفها على بلاد الرومان واخذت تكتسحها من جديد ثقافيا وروحيا . فلم تجد اللاطينية منجاتها الا فى اولئك الكتاب الافارقة الذين حافظوا على كيانها وانقذوها من الذبول والانهيار . فهذا ما يفسر هجرة الكثير من الاساتذة الافارقة الى البلاد الايطالية خلال القرنين الثالث والرابع م .

يمكن ترتيب رجال الفكر الافارقة الذين خلدوا تراثا ثقافيا على العهد الرومانى الى خمس طبقات .

اولا : طبقة المتهلنين وهى التى عاشت خلال القرنين الاولين اللذين عقبا سقوط قرطاجنة . وكتاب هذه الطبقة كانوا متاثرين بالعلوم الانسانية الهيلينية .

ثانيا : الطبقة المخضرمة التى ظهر فيها كتاب كتبوا باللغتين اليونانية واللاطينية . وقد تميزت هذه الطبقة بآداب افريقية وروح افريقية صميمة . وقد عاشت من اواسط القرن الاول الى اواخر القرن الثانى م .

ثالثا : طبقة الاباطرة الافارقة التى كانت خصبة جدا بالكتاب والمفكرين ، وقد عاشت هذه الطبقة فى غضون القرن الثالث م .

رابعا : طبقة المتنصرين التى ظهرت اثناء القرن الرابع وفى النصف الاول من القرن الخامس م .

خامسا : طبقة الانحطاط وهى التى عاشت فى العهدين الوندالى والبزنطى ٠

وها نحن نستعرض فى ايجاز كتاب هذه الطبقات على التوالى:

## الطبقة المتهلنة

اثناء القرنين اللذين عقبا سقوط قرطاجنة، اى من اواسط القرن الثانى قبل المسيح الى اواسط القرن الاول بعده ، لم توجد فى ايطاليا نفسها آداب لاطينية محضة بل كانت الثقافة الهيلينية هى السائدة٠ فباستثناء شيشرون وفيرقلوس لم تنجب ايطاليا كتابا لاطينيين جديرين بهذا الاسم ، وحتى هذان الكاتبان لم يدخلا فى الدراسات الكلاسيكية الا بعد وفاتهما بمدة طويلة ، فما بالك بافريقية الرومانية التى تقلدت العلوم والثقافة الهيلينية قبل رومة نفسها ؟

ابرز وجوه هذه الطبقة هو الامير يوبا الثانى (JUBA II) الذى عرجنا عليه آنفا ٠

ولد هذا الامير بموريطانيا سنة 50 قبل المسيح ٠ ولما انتحر ابوه سنة 46 ق٠م٠ كان عمره اذ ذاك اربع سنوات ٠ فاخذه يوليوس قيصر معه الى رومة ٠ وقد اعتنت بتربيته وتهذيبه الاميرة اكتافيا (OCTAVIA) أخت القيصر اغسطس ٠ فتلقى برومة تربية ملكية عالية وتعلم بالمدارس الايطالية المتهلنة ٠ ولما بلغ اشده رجع الى بلاد موريطانيا حيث تربع على

عرش ملكها خلفا لابيه يوبا الاول واتخذ مدينة يول (IOL) عاصمة له واسماها قيصرية (CAESAREA) اعترافا بالجميل ليوليوس قيصر ولى نعمته . وهى مدينة شرشال اليوم .

وكان هذا الملك مشهورا بتآليفه وتصانيفه واعماله الفكرية اكثر من اشتهاره بالملك .

يعتبر يوبا الثانى من أكبر المؤرخين وعلماء الجغرافيا والطبيعيات والشعر والفنون المختلفة .

« وقد الف هذا الامير كتبا عديدة نذكر منها : كتاب الليبيات (Les Lybica) فى ثلاثة اجزاء . وهو يشتمل على مواد مختلفة تتعلق بافريقية من جغرافيا وتاريخ واساطير ميثولوجية وطبيعيات وغير ذلك ... كما الف كتابا حول جزيرة العرب (Les Arabica) ، وتاريخ الرومان ، وكتبا كثيرة فى فنون الرسم والتشخيص والموسيقى وفى اللغة ، وهى مصنفات كثيرة لم يصلنا منها شىء » (46) .

ومن بين كتاب هذه الطبقة الكاتب البربرى ديونيسيوس (DIONYSIUS) وليد مدينة اوتيكا (UTIQUE) (هنشير باش شاطر بين تونس وبنزرت) الذى ترجم موسوعة ماغون الفلاحية الى اللغة اليونانية .

---

(46) كتاب مدنية المغرب العربى فى التاريخ للاستاذ احمد صفر ص 68 بوسلامة. تونس 1959

ويجدر ان نذكر ايضا من بين علماء ذلك العصر العالم القرطاجنى هصدروبعل (HASDRUBAL) الذى هاجر الى البلاد اليونانية حيث اسس اكديمية علمية ٠

## الطبقة المخضرمة

ابتداء من اواسط القرن الاول المسيحى اخذت اللغة اللاطينية تزاحم اللغة اليونانية بافريقية بصفة جدية ، وذلك للاسباب الاجتماعية والسياسية التى ذكرناها آنفا ، فظهر فى ذلك العصر كتاب افارقة كتبوا فى اللغتين ٠

واشهر هؤلاء المخضرمين هم :

الشاعر مانيلوس (MANILUS) الذى الف كتاب الفلكيات (Les Astronomiques) . واما فى النثر فقد اشتهر كرنوتوس (CORNUTUS) وسيفيروس اللبدى (SEVERUS de LEPTIS) وهؤلاء الذين كانوا من الرعيل الاول لم يسلموا من التقليد الذى هو ظاهرة حتمية لكل تطور ٠

وبعد هذه الطليعة من المفكرين الافارقة برزت فى غضون القرن الثانى طبقة من ذوى اللسانين تحققت بفضلهم الشخصية الافريقية العلمية حتى طبق ذكرهم الآفاق فنخص بالذكر منهم :

البليغ فرنطون القرطى (FRONTON DE CERTA) المولود بمدينة قسنطينة فى اوائل المائة الثانية ٠ تلقى فرنتون تعلمه الابتدائى والثانوى بمسقط راسه ، ثم ارتحل الى قرطاجنة لمواصلة تعلمه العالى ٠ واخيرا ولى وجهه شطر مدينة رومة حيث

انتصب للمرافعة امام المحاكم ، ذلك انه كان على غاية من الفصاحة والبلاغة ، وكان يعد من اكبر محامى زمانه ، وقد انتخبه الامبراطور انطونان استاذا ومربيا لمتبناه ماركوس اوريلوس (Marc Aurèle) الذى صار فيما بعد امبراطورا على رومة · واعترافا بالجميل اولى هذا الاخير استاذه ولاية صقلية ·

ابوليينير القرطاجنى (Apollinaire de Carthage) المولود حوالى سنة 100 والذى كان نحويا ضليعا وعالما نحريرا ، فلقد انتصب للتعليم بجامعة قرطاجنة ثم بمدينة رومة حيث اسس مدرسة ، واخيرا سمى بروقنصلا ·

والذى كان اشد الافارقة خطرا ، واحدهم ذكاء ، وافصحهم لسانا ، وأبلغهم لهجة ، وأوسعهم علما هو الكاتب ابوليوس المداوروشى (APULEE de MADAURUS) [•]

ولد هذا العبقرى حوالى سنة 125 م بقرية مداوروش بالجزائر حيث تلقى تعلمه الابتدائى والثانوى · وكانت هذه القرية مشهورة بمدارسها يؤممها الطلبة من كل مكان ·

كان ابوليوس نقادا ونحويا ومؤرخا وشاعرا وخطيبا وفيلسوفا وعالما · فألف فى الفلسفة وفى الزراعة وفى الفيزيا وفى وظائف الاعضاء وفى العلوم الطبيعية · وكان ايضا كاتبا روائيا قديرا · فمن مؤلفاته الروائية الفلسفية « حمار الذهب » و « الفلوريدا » · ولربما ابتدأ درسه او خطابه باللغة اللاطينية واتمه باللغة اليونانية ، وقد كان متضلعا فيهما معا ·

وقد طاف الامبراطورية الرومانية باسرها ، وكلما حل بقوم من الاقوام الا وسحرهم بفصاحته النادرة وسباهم ببيانه الاخاذ ، حتى انه رفعت به قضية لدى المحاكم ببلاد اليونان ، اتهم فيها بانه سحر امرأة ذات جمال فتان ، فاحبته حبا جنونيا . فلما مثل امام المحكمة شرع يناضل عن نفسه ببلاغة فائقة وفصاحة نادرة اقتلع بهما اعجاب حكامه الذين سحرهم ايضا ببيانه ـ وان من البيان لسحرا ـ فلم يتمالكوا ان خلوا سبيله معتذرين .

وقد ظلت تلك المرافعة الفصيحة مضرب الامثال ناهيكم بان كل مرافعة بليغة اصبحت من ذلك التاريخ تسمى ابولوجيا (APOLOGIA) نسبة الى ابوليوس.

وكان ابوليوس معتزا بقوميته الافريقية وبنسبته فكان يقول : « انا نوميدى وجد الى نصفا بنصف » كما كان يقول : « انا لا اخجل من انتسابى الى وطنى نوميديا » .

وقد انجبت مدينة سوسة اسرة البينوس التى اشتهر منها البينوس الحضرموتى الذى كان خطيبا مصقعا وفقيها متضلعا فى الحقوق .

ومن ابناء حضرموت ايضا نخص بالذكر صلفيوس جوليانوس (SALVIUS JULIANUS) الذى كان متفقها فى القانون حتى انه كان يعد أكبر فقهاء زمانه . وكان له تلميذ تخرج عليه وبلغ مبلغه يسمى كسيوس الافريقى (CASIUS L'AFRICAIN) (47).

(47) راجع تاريخ سوسة (HADRUMETE) للاستاذ فوشى

## طبقة الاباطرة الافارقة

ما ان أطل فجر القرن الثالث المسيحى حتى شرع الافارقة فى شن حملة واسعة النطاق لغزو البلاد الايطالية سياسيا وثقافيا وروحيا · وهى لعمرى ظاهرة تاريخية غريبة فى بابها فألامة المغلوبة على امرها تحتل الامة الغالبة لا بحد السلاح وانما بحد القلم والروح · فهذه الظاهرة لمن اكبر الادلة على عبقرية الافارقة ·

ان مدينة اثينا وان هى غزت رومة بثقافتها وفلسفتها وعلومها الانسانية ، الا انه لم يتح ولو ليونانى واحد ان يتربع على عرش رومة مثلما اتيح ذلك للافارقة ·

ان رومة الجبارة ، رومة العاتية ، رومة المتهيمنة ، رومة المتكبرة اصبحت طوع امر البرابرة الافارقة الذين أخضعوها لارادتهم ، فظلوا حكامها المطلقين طيلة احقاب، واسيادها المشرفين على حظوظها عصورا ودهورا ·

فلقد تعاقب على عرش رومة اباطرة أفارقة من آل البينوس مواليد سوسة ، وآل سفيروس من ابناء طرابلس الغرب ، ومكرينوس الشرشالى (Macrinus de CAESAREA) ، وآل غرديانوس القرطاجنى (Les Gordiens).

وكان هؤلاء الامراء شغوفين بالعلم مكرمين لاهله ومشجعين للفنون ·

كان القـرن الثالث خصبا جـدا بافريقية التى انجبت فى غضونه عددا وافرا من الفلاسفة والادبـاء والعلمـاء عـلى مختلف طبقاتهم ومللهم ونحلهم ٠

واذا مـا تأملنا فى العوامل التى دعت الى هذا الخصب الفكرى الوفير الذى بدأ بافريقية خلال القـرن الثالث نـراها تنحصر فى الامور التالية :

اولا : الاستعـداد التليد الذى اكتسبه الافارقة منذ أزمان بعيدة وبرهنوا عنه طيلة العصور الخوالى والحاضرة ٠

ثانيا : كان الماسكون بـزمام الحكم برومة وبافريقية افارقة يعتزون بافريقيتهم ويحنون الى وطنهم ويعطفون على ابناء جلدتهم ٠ او لم يجلب آل سافاروس الكثير من الكتاب والاساتذة الافارقة الى ايطاليا وأغدقوا عليهم العطايا وخلعوا عليهم الوظائف السامية؟ او لم يامر سبتيموس سافروس ببنـاء الهيـاكـل والمـدارس بافريقية ؟ وقـد اشتد حب الاباطـرة الافـارقة لبلادهم وتعلقهم بماضيهـا حتى ان الامبراطـور كـركـلا (CARACALLA) ابـن سبتيموس سافروس امـر بان ينصب تمثـال لحنبعـل بجميـع بلديات ايطاليا ـ او لم يامـر الامبراطور غرديانوس الاول ببناء ملعب الجم تلك المعجزة التاريخية التى ظلت الى الآن تقارع عوائـد الدهر منذ عصور ٠

ثالثا : والعامل الثالث الذى كان سببا فى خصب العلـوم والادب بافريقيـة هو ظهـور المسيحية بايطاليا وبمستعمراتها

فالبرابرة اقبلوا على هذا الدين الجديد الذى صادف هوى فى انفسهم لانه نادى بالاخوية والمساواة ، فاتخذوه مطية للاعراب عما تكنه افئدتهم ، ولمقاومة الرومان اعداء هذا الدين · فبرز من بين الافارقة كتاب فطاحل تصدوا للدفاع عن العقيدة الجديدة فى الظاهر ولمصارعة الهيمنة الرومانية فى الباطن ·

نعم لم يعتنق جميع المفكرين الافارقة الدين المسيحى بل استمر منهم الكثيرون على وثنيتهم وتنصر منهم الكثير بعد تردد ·

من اشهر رجال هذا العصر الذهبى الامبراطور سبتيموس سافروس حفيد الكاتب سافروس اللبدى الذى تحدثنا عنه سالفا ·

ولد هذا الملك العالم سنة 146 م بمدينة لبتيس مقنا (Leptis Magna) (هنشر لبدة) بطرابلس الغرب فى اسرة سافاروس العريقة فى المجد · فبعد ان تلقى تعلمه الابتدائى والثانوى بمسقط رأسه ارتحل الى رومة ثم الى اثينا طلبا للعلم · فتضلع فى الاداب والفلسفة والقانون· وكانت له نفس طموحة جبارة · فانخرط فى الجيش الرومانى ، وسرعان ما بلغ رتبة جنرال· فعين قائدا عاما على رأس الحامية الرومانية الضاربة بمدينة ليون (LYON) عاصمة غالة · فاستمال الجيش بفضل سياسته ومهارته ، واحتل رومة ، وتربع على عرشها بوصفه امبراطورا · وقد دام الملك بيد آل سافاروس ربع قرن تقريبا ·

الف سبتيموس سافاروس كتابا ضخما فى القانون بقى معمولا به اثناء القرون الوسطى وهو المسمى بالقانون الرومانى. وقد اقتبست منه الشرائع العصرية نظريات عديدة واستوحت منه احكاما كثيرة ٠

ومن اشهر كتاب هذا العصر أيضا طرطوليانوس القرطاجنى 155 ـ 210 م (Tertulienus de Carthage) الذى عرف بنضاله عن المسيحية وقد الف فى هذا الغرض كتابه المشهور (L'Apologique) وكانت مؤلفاته تعد بحق من ابدع آيات الفن البلاغى اللاطينى ٠

لقد قام هذا الكاتب بدور هام جدا فى النضال عن المسيحية وتوطيد اركانها حتى انه لا يمكن حصر عبقريته فى البلاد والزمان اللذين كتب فيهما بل تجاوزت ذلك النطاق فطبقت الآفاق ٠

كان طوطوليانوس القرطاجنى خطيبا مصقعا ومناضلا محجاجا وبليغا مقنعا وفقيها متضلعا فى العلوم الدينية ٠

ومن الجدير بالذكر ايضا نيميسيانوس القرطاجنى (Nemesianus de Carthage) الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث ٠ فكان شاعرا واقعيا من نوع البرناسيان ٠ فلقد نظم قصائد فى الصيد البحرى وفى الصيد البرى وفى الملاحة ، فكان شعوره كله مستمدا من مشاهد الطبيعية ٠

وفى القرن الثالث ايضا اشتهر افريقيان بتضلعهما فى علم

العروض والقوافى وهما يـوبا (غير الامير يوبا السالف الذكر) وتيرنتيانوس الموريطانى (Térentianus le Maure) . وقـد اسس كل منهما مدرسة مذهبية فى علـم العروض . فيوبا ترك لنا كتابـا فى فن العروض (L'Art métrique) واما تيرنتيانـوس فقد نظـم أرجوزة فى علم العروض تحتوى على ثلاثة آلاف بيت .

وفى عهد الاباطرة ظهر برومة محام افريقى يدعى مينوقيوس فيليكس (Minucius Félix) الذى الف من بين مـا ألف روايـة تمثيلية سماها اكتافيوس (OCTAVIUS) ، قال فيها من جملة ما قال على لسان احد ابطاله :

. . . فنهب الاجوار ، وتهديم مدنهم وهياكلهم ومعابدهم ، وسبى الاسرى ، والشخوص الى العظمة بتحطيم الغير ، وارتكاب الجرائم ، تلك كانت سياسة رومولـوس وكل الملـوك والرؤساء الذين خلفـوه . فهكذا كل مـا يكسب الـرومـان ويعبـدون ويملكون انما هو اسلاب استحوذوا عليها بجراءتهم (48) .

واما القديس شبريانوس (Saint Cyprien) فقد ولد بقرطاجنة حوالى سنة 210 م . فكان بليغـا عبقريا ، وتعاطى المحاماة بمسقط راسه . وكـان من المسيحيين الشهداء الذين نالهم العذاب الاليم فى سبيل عقيدتهم وقـد ارتقى قبل استشهاده الى رتبة اسقف بقرطاجنة والف اثنى عشر تاليفا فى العلوم الدينية .

(48) Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne. Tome I page 465 par Paul Monceaux. Ernest Leroux-Paris 1901.

# طبقـــة المتنصـرين

ومن اعظم كتاب القـرن الثالث وأشدهم وطنيـة البليـغ ارنوبوس الكافى (Arnobus de Sicca) الذى ولـد بمدينة شقب النار (Sicca Veneria) (الكاف) سنة 224 حيث تعاطى التدريس فكان عالما نحـريرا وفيلسوفـا كتب فى اللغتين اللاطينية واليونانية ٠

كان ارنوبوس معبود ابناء جلدته الذين كانوا يكبرون فيه الروح الوطنية المتدفقة والحماس المتقد، على ان اغلب كتاب القرنين الثانى والثالث كانوا يتغنون بوطنيتهم ويمجدونها ويتجاهرون ببغضهم للرومان المحتلين ٠ وقد تخرج على هذا الاستاذ تـلاميذ كثيرون اشتهـروا فى الحقـل العلمى والميدان الوطنى ٠

وقد ألف كتابا في سبعة اجـزاء خصصـه للنضـال عـن المسيحية ٠ ومن خلال تآليفه تبدو خصائص الاداب الافـريقية ٠ فهو يتحدث مثلا عن الجوائح الزراعية مثل الجفاف والجراد ويضيف اليها جائحة اخرى الا وهم الـرومان ٠ كما انه يتحدث عما ينتاب البادية والارياف من مصائب وبؤس فى سنى الجفاف ٠

فهو فخور بالانتساب الى افريقيا ويمجد ما ضيها وابطالها ويذكر فى الجزء الثانى صفحة 73 وفى الجزء السابع صفحة 50 بان حنبعل القرطاجنى ادخل الرعب فى قلوب الرومان الذين ارتعدت فرائصهم من صولته ٠ وكان الكاتب شديدا فى حكمه على اعـداء قرطاجنة ، فنراه فى الصفحة الرابعة من الجزء الرابع يزدرى برومة

ويحتقرهـا عندما يتحـدث عن انكساراتهـا فى واقعتى كـانـا وتـرنزيمان وهـو اذ يـذكر الاستيـلاء الرومانى يتحدث عنـه كاجنبى ويعده من الجوائح ويختم مرافعته بتصريحه التالى :

« ان رومة خلقت لاتلاف الجنس البشرى » (49) ٠

كان ارنوبوس وثنيا ثم اعتنق الـديانة المسيحية ٠ وقـد كتب للدفـاع عن دينه الجـديد سبعة كتب فى مجلد واحد اسماه: اعـداء القومية (Adversers Nationes) ٠ وكان هذا التاليف موجها ضد الوثنية الرومانية فى ظاهره ، و ضد الاحتلال الرومانى فى باطنه اذ كان مفعما بالوطنيات ومشبعا بما يكنه من بغض وكراهية نحو الدخيل العـادى ٠

بعد ان اعتنق ارنوبوس الديانة المسيحية نراه يتحدث فى احد كتبه السبعة عن عبادة الاوثان فيقول :

« كنت قبلا اعبد ـ يا للغى ـ كنت اعبد الاوثان المصنوعة من الحديد ، كنت اعبد آلهة مطروقـة على السندان ، كنت اعبد خـرقا معقودة باغصان شجـرة عتيقة » (50) ٠ الكتاب السابع صفحة 51) ٠

---

(49) Histoire de l'Afrique Chrétienne. PP 242 - 243. par Paul Monceaux - Paris 1903.

(50) ما زلنا نرى فى عصرنا هذا اشجارا معقودة بها خرق مختلفة الالوان وذلك فى غابات شمـال الجمهورية التـونسية ، وهى من مخلفـات الـوثنية البربرية ويسميها الاهـالى هنـاك « ام الشلاليـق » والنساء يعقـدن فيها النيـة .

ومن تلاميذ ارنوبوس حرى بنا ان نذكر فيرمينوس لكتتيوس (FIRMINUS LACTATIUS) المولود حوالى سنة 250 بقرطة (قسنطينة) وكان بليغا فصيحا عم ذكره البلاد وتجاوز حدودها ، فدعى الى مدينة نيكوميديا وقد اصبحت العاصمة الجديدة للامبراطورية (وتسمى اليوم ازميت او خوفه على وهى واقعة على ضفاف بحر مرمرة بتركيا) ، دعى ليعلم الفصاحة والبلاغة . فاوكل اليه تربية القيصر كريسيوس ابن القيصر كنستنتان . وكان ارتحل فى ذلك العهد الى نيكوميديا كثير من رجال العلم الافارقة من بينهم النحوى فلابيوس الذى انيط بعهدته تدريس النحو اللاطينى .

كان لكتنسيوس يعالج المسائل النحوية والعروض والجغرافيا والفلسفة ، وقد الف فى الفلسفة الدينية موسوعة فى سبعة اجزاء أسماها المؤسسات الالهية (Divines Institutions) كما انه وضع كتابا شاملا لتاريخ افريقية وجغرافيتها سماه « بافريقية » ، ودون رحلته شعرا ودعاها « من افريقيا الى نيكوميديا » .

ومن بين العلماء الافارقة الذين نالوا شهرة فائقة البليغ ماريوس فكتورينوس (Marius Victorinus) المولود حوالى سنة 300. فكان بليغا ونحويا وفيلسوفا وشاعرا انتصب للتدريس فى اول امره ، ثم ارتحل الى ايطاليا مثل ابناء جلدته فى ذلك العصر ، فاسس برومة مدرسة للبلاغة وقد احرز على درجة عالية من العلم مما حدا بالامبراطور ان امر بان يقام له تمثال فى ميدان تراجان برومة سنة 353 .

كان فى اول امره من اشد اعداء المسيحية ، ثم اعتنقها دينا واصبح من المناضلين عنها (51) ٠

من الكتاب العلماء الخليقين بالذكر مكروبوس (Macrobus) المولود ببونه (عنابه) والذى عاش ما بين القرن الرابع والقرن الخامس ٠ فقد الف كتابا اسماه (SATURMALES) وهو كتاب لخص فيه جميع العلوم ٠ كما الف كتابا آخر شرح فيه كتاب «احلام شيبيون» الذى كان صنفه الكاتب الرومانى شيشرون ـ وهو ايضا من الذين ارتحلوا الى ايطاليا وانتصبوا للتدريس بجامعة رومة. قلد هذا الكاتب الافريقى ولاية اسبانيا فغاله ثم سمى بروقنصل بقرطاجنة ٠

ومن الذين برزوا ايضا فى ذلك العصر كابيلا مرتيانوس (CAPELLA MARTIANUS) المولود فى اواخر القرن الرابع بقرية مداوروش، فالف موسوعة الفنون السبعة الحرة (Les sept arts libéraux)

ولكن اعظم علماء هذا العصر واوسعهم علما واصدقهم لهجة، هو القديس اغستيانوس البونى (Saint Augustin) ولد هذا القديس بقرية ثاقست (Thagast) قرب مدينة عنابة بالجزائر سنة 354 من اب وثنى يدعى باتريقيوس (PATRICIUS) ومن ام مسيحية تسمى مونيكا (Sainte Monique) ٠ فتلقى تعلمه الابتدائى بمسقط راسه ، ثم ارتحل الى بلدة مداوروش لمزاولة تعلمه الثانوى ٠ وعند ما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بجامعة قرطاجنة حيث اتم تعلمه العالى ٠ فاسس بالعاصمة الافريقية مدرسة لتعليم البلاغة ولما يتجاوز العشرين من سنيه ، فالتف حوله شبان

(51) Saint Augustin — Les Confessions — Livre VIII. P. 2

كثيرون قد يقاربونه فى السن . ولم يلبث ان ذاع صيته بين رجال العلم والفلسفة ، الا انه بقى وثنيا استهوته المانوية والفلسفة الافلاطونية الحديثة .

لم ير اغسطس بدا من الرحيل الى رومة لنشر بضاعته طلبا للرزق ، كما كان يفعل ابناء جلدته . ففتح مدرسة بلاغة ، لكنه لم يلبث ان تخلى عنها لان طلبة رومة لا يوفون بالتزاماتهم المالية نحو اساتذتهم ، فاضطر اغسطينوس الى التماس خطة تدريس من الحكومة الرومانية التى سمته استاذا بمدينة ميلانو سنة 384 ، الا انه مج التعليم وزهد فى الدنيا حيث انه اقبل اقبالا كليا على العقيدة الكاثوليكية تحت تاثير امه التى كانت على غاية من التدين ، فاصبح من ذلك العهد من اكبر المناضلين عن العقيدة الكاثوليكية ضد الزندقة المانوية والتوحيدية الآرية التى كانت تنكر تأليه المسيح ، وخصوصا ضد الدوناتية الافريقية : وهو مذهب خارجى انفصالى ابتكره الافارقة لمقاومة الكاثوليكية التى اصبحت مذهب الجماهير الرومانية . ولم يجد لنضاله ميدانا افسح من بلدته ثاقست فرجع اليها .

الف القديس اغسطينوس مؤلفات عديدة اهمها كتاب « الاعترافات » وقد وضع هذا التصنيف للتكفير عن ذنوبه ، وكتاب « مدينة الله » الذى صنفه للرد على الرومان الذين فقدوا الثقة فى الديانة المسيحية عند ما احتل القوطيون مدينة رومة واستباحوها نهبا وحرقا ، ذلك ان الرومان ظنوا ان سبب هذه الكارثة العظمى هو غضب الآلهة القدامى الذين انتقموا لانفسهم من رومة لانها اعرضت عن عبادتهم واقبلت على الديانة المسيحية.

فاكتسحت البلاد موجة من الـردة ، فوضع القديس اغسطيانوس كتاب « مدينة الله » للـرد على اهـل الـردة محاولا ارجاعهم الى اليفين · عـلى ان القديس الف كتبـا عديدة ورسائل كثيرة فى الجدل وفى الالهيات وفى الفلسفة الدينية للذود عن حياض المذهب الكاثوليكى ·

توفى القديس اغسطيانوس بمدينة بـونه (عنابة) سنة 430 م وكان وقتذاك اسقفها وهى ترزح تحت الحصار الشديد الذى ضربه عليها الوندال (52) ·

ذكرنا آنفا كلمة الدوناتية وقلنا انها مذهب خارجى انفصالى افريقى ابتدعه الافارقة لمقاومة الكاثوليكية التى اصبحت مـذهب اغلبية الرومان المستعمرين ·

نعـم ان الشعوبية الافـريقيـة هـى التى وضعت هـذا المذهب ، وهو ضرب من المقاومة الـوطنية المستترة تحت شعـار الاصلاح الدينى · ونفس هذه الـروح المـذهبية السياسية هى التى تقمصها فيما بعد الخوارج الافارقة المسلمون للغرض نفسه·

واضع هذا المذهب الانفصالى هـو (DONATUS MAJUS) دوناتوس الاكبر المـولود سنة 270 بقرية «البيوت السود» (CASAE NIGRAE) ولعلهـا قرية نيقرين الواقعة بالجنـوب الجـزائرى على الحـدود التونسية قرب قرية تامغزة ·

(52) Voir : Saint Augustin par Cresson André. Presse Uuiversitaires de France-Paris 1957

كان دوناتوس الاكبر شاعرا واديبا وعالما دينيا . ولى خطة مطران بقرطاجنة ثم انشق عن الكنيسة الكاثوليكية لانه كان يشاهد ان الرومان المتنصرين ما انفكوا يسومون سوء العذاب البرابرة سواء النصارى منهم او الوثنيون . فراى ان يمرق عن الكاثوليكية احتجاجا على سوء سلوك اهل الكنيسة ودفاعا عن ابناء جلدته ، فابتكر هذا المذهب الجديد لجمع شتات الافارقة وتوحيد كلمتهم وتاليبهم ضد الكنيسة المخالفة لتعاليم الدين . هذا فى الظاهر ، واما باطنيا فقد كان دوناتوس يضمر الحقد والبغض للرومان . فما زال مذهبه ينتشر حتى عم جميع الطبقات المستضعفة فاخذ اشياع دوناتوس يؤلفون الجماعات الغفيرة ويطوفون بالارياف والقرى والضياع التى كانت على ملك الرومانيين يلحقون بها الخراب والدمار ، فلذلك كانوا يدعون الطوافين (Les Circoncellions) .

وقد ألف دوناتوس كتبا عديدة اشهرها «رسالة العمادة» (Epistol de Baptismo) وكتاب « الروح المقدسة » (SPIRITUS SANCTO)

ومن انصار دوناتوس الذين برزوا فى الحقل العلمى والمذهبى فيتيليوس الافريقى (VITELLIUS Afer) الذى أسس مدرسة دوناتية برومة حيث انتشر المذهب انتشارا لم يكن متوقعا . ويجدر بان نذكر ايضا مكروبوس الافريقى (MACROBUS Afer) وكلوديانوس (CLAUDIANUS) اللذين شاركا مشاركة فعالة فى نشر المذهب الدوناتى بافريقيا وايطاليا وتعاقبا على خطة المطرانية برومة نفسها ، وغير هؤلاء كثيرون .

وقد تولد ادب غزير عن هذا المذهب اتسم بسمة الشدة والصرامة والجرأة والشجاعة فى التفكير وفى القول ٠

قبل ان نختم هذا الباب خليق بنا ان نقول كلمة عن ادب الاستشهاد :

ان الحكومة الرومانية الوثنية كانت شديدة على المتنصرين بصفة عامة ، وكانت لا تتورع فى تعذيبهم بجميع الوان العذاب وفى تقتيلهم اشنع القتل ٠ فكانت تنفيهم وتسجنهم وتجردهم من املاكهم وتحرقهم احياء وتصلبهم وتقدمهم فريسة للحيوانات الضارية فى الملاعب العمومية ٠ فتولد عن هذه المعاملة القاسية النكراء ادب سموه ادب الاستشهاد برزفيه الكثير من الادباء الافارقة الذين خلدوا شعرا حزينا وأدبا باكيا جديرا بالعناية والدرس ٠ ونحن نحيل القارىء على كتاب « عبقرية المسيحية » للكاتب الفرنسى (CHATEAUBRIAND) وكتاب ادب الاستشهاد (La littérature Martyrisante) للكاتب الفرنسى الآنف الذكر (Paul Monceaux)

## طبقة عصر الانحطاط

«o»

فى سنة 430 احتل البلاد التونسية جموع الوندال المتوحشة فاسلموا البلاد الى الحديد والنار ، واستباحوا القرى والمدن والارياف نهبا وتخريبا ، فعمت الفوضى ، وانتشر البؤس

وانحطت القيم الانسانية ، وعفا رسم الثقافة من البلاد ، وساد الجهل . فكان الاستيلاء الوندالى وبالا على البلاد والعباد .

وبالرغم من تلك المصائب والمحن بقى بعض الافارقة متمسكين بعرى الثقافة فظهر من بينهم على العهد الوندالى الطبيبان كسيوس فيليكس وكاليوس اوريلوس والعالم بوبيوس المريطانى والنحوى فلجنسوس والمؤرخ فيكتوروس دى فيتا والشاعران لكسوريوس ودراكنتيوس .

ولما احتل البزنطيونيون البلاد اثناء القرن السادس لم يعنوا كثيرا بالثقافة والعلم اذ كان عصرهم عصر حروب ومقاومة وثورات ، فلم ينبغ فى ذلك العهد الا القليل من الافارقة . فلقد خلد لنا التاريخ اسماء بعض الاعلام مثل الكاتب بريسيان الشرشالى وجويلنوس الذى ترك تفسيرا للكاتب المقدس وفيكتوروس التونسى المؤرخ وكربيوس الشاعر .

تلك هى نبذة خاطفة وعجالة موجزة فى التربية والثقافة بافريقية خلال العصور التى سبقت الاسلام .

واليكم ما يقوله الكاتب الفرنسى بول منصو فى خاتمة كتبه السبعة التى خصصها للبحث فى الآداب الافريقية خلال العصور القديمة والتى كرس من اجلها جل حياته :

« حقيقة لم يوجد فى اى قطر من اقطار الامبراطورية الرومانية آداب اخصب مادة ولا ابدع اسلوبا ولا أحكم تطورا

منطقيا من الاداب التى ازدهرت بافريقية . ففى ميدان التفكير والاسلوب اضفت الآداب الافريقية صبغتها على كامل اروبا الغربية وبفضل الكاتبين ابوليوس وفرنتوس فرضت ذوقها احقابا على وثنيى رومة ، وبفضل طرطوليانوس والقديس اغسطيانوس سحبت وراءها اغلب المؤلفين النصارى الرومان ».

الباب الثانى

## التربية بافريقية الاسلامية
## لمحة تاريخية

لما جاء نصر الله والفتح وغمر سنا الاسلام الوهاج ربوع الشرق العربى ، انبثق منه شاع لألاء بعث النور متألقا فى ارجاء افريقية التى كانت فى قبضة الروم البيزنطينيين أثناء القرن السابع المسيحى ٠

تقدمت طلائع الجيش العربى الى افريقية فى زحفهم الاولى على عهد الخليفة عثمان بن عفان سنة 27 هـ (647 م) ثم توالت الهجومات العربية عليها طيلة خمسين عاما لشدة ما اتصفت به المقاومة البربرية من العنف والصلابة ٠

فلم ير القائد العربى عقبة بن نافع بدا من نصب «قيروانه» فى قلب افريقية سنة 50 هـ (670م) ومن هذا المعسكر المركزى كانت الغارات والغزوات العربية تشن على اوكار المقاومة البربرية والمعاقل البيزنطية ٠

وما فتئت القيروان حتى اصبحت كرسى الامارة العربية

ومركز القيادة . فاوى اليها المجاهدون المسلمون بعيالهم وذراريهم .

فلما تم الفتح اذعن البرابرة للفاتحين ، ودخلوا دين الله افواجا ، واقبلوا على تعلم العربية فظلت القيروان عاصمة سياسية وروحية ودار علم وثقافة يؤمها الطلاب من اقاصى البلاد وادانيها.

وفى سنة 185 هـ (800 م) اسس الوالى العربى ابراهيم بن الاغلب التميمى الدولة الاغلبية بمدينة القيروان ، فازدهرت العلوم وعمت المعرفة وانتشرت اللغة العربية على عهد هذه الدولة الفتية التى نبغ فى مدتها اعلام كثيرون .

ولما انقرضت الدولة الاغلبية سنة 295 هـ (909 م) خلفتها الدولة الفاطمية (العبيدية) التى شجعت العلوم والمعارف بالرغم من الفتن المذهبية التى كانت تعكر صفوها .

الا ان افريقية لم تبلغ اوجها من الحضارة والعلوم والادب وضروب المعرفة الا على عهد الدولة الصنهاجية البربرية (الزيرية) التى استخلفها الفاطميون بافريقية عند رحيلهم الى مصر سنة 362 هـ (973 م) .

ولم تنقرض الدولة الصنهاجية الا بعد ان عانت انواع الويلات من جراء استيلاء النرمان على السواحل التونسية وعيث اعراب بنى هلال ومن لف لفهم داخل البلاد . فتم زوالها على يد الموحدين المغاربة سنة 556 هـ 1160 م) .

فعند هذا التاريخ ننهى بحثنا هذا والله ولى التوفيق .

الفصل الاول

# الفتح العربى فتح ثقافى

لقد اختلفت على افريقية ـ على ممر العصور ـ امم عديدة وحضارات متنوعة ، فتركت فيها آثارا كثيرة . الا ان هذه الآثار كانت مادية فى اغلب الاحيان ، ذلك ان تلك الامم المتعاقبة على البلاد لم تحل بها من اجل غرس عقيدة دينية او نشر ثقافة ، بل ان البعض منها تأثر الى حد بعيد بالعقيدة السائدة فى هذه الديار .

فالفنيقيون كان همهم منحصرا فى الاتجار والاثراء ، فلم يأتوا قط من اجل فرض ديانة او بث عقيدة ، او نشر ثقافة ، وكذلك الرومان الذين كانوا يبغون الحلول محل قرطاجنة واكتساح الاراضى واستعباد الرقاب، فقد اقتبسوا اصول عقيدتهم الوثنية عن اليونان وعن الفينيقيين ، ولم يهتموا بفرضها على الامم المغلوبة على امرها . واما الوندال فكانوا وثنيين عندما اكتسحوا الامبراطورية الرومانية ، وقد اعتنقوا الديانة المسيحية بعد احتلالهم البلاد الافريقية . وعلى الرغم من ان البزنطينيين كانوا مسيحيى المعتقد فلم يصطبغ استيلاؤهم على البلاد بالصبغة الدينية ، وذلك لان الديانة المسيحية كانت متغلغلة فى هذه الربوع ابان الاستيلاء البزنطى .

واما الفتح العربى فكان فتحا دينيا ثقافيا ، اذ انه جاء

لنشر تعاليم الدين الاسلامى المتمثلة فى القرآن الكريم ٠ « فالقرآن قوام دين ، ودستور سياسة ، وبحر اخلاق ، وقاموس لغة ، وديوان ثقافة » ٠ فلادراك معانى هذا الكتاب واحكامه فى كلياتها وجزئياتها وجبت اللغة العربية ووجب اتقان قواعدها على ابناء الامم التى شملها الفتح ، بل وعلى ابناء العرب انفسهم ٠ فبموجب ذلك عنى العرب الفاتحون بالتعليم منذ بداية الفتح لعلمهم بان العقيدة لاترسخ فى القلوب ولا تتغلغل فى الاذهان بمجرد التلقين الشفوى ٠ فلذلك كان الفتح العربى لا فتحا دينيا فحسب بل كان ايضا فتحا ثقافيا عميق الاثر خالد المفعول ٠

والذى سهل على العربية انتشارها ورسوخها بين امصار البربر وقبائلهم هى الاسباب والدواعى التالية :

اولا ـ ما يوجد بين اللغة العربية واللغة البربرية من اوجه الشبه حيث ان اللغتين مشتقتان من اصل واحد هى اللغة السامية ، من ذلك ان جميع الحروف الهجائية العربية توجد فى اللغة البربرية ما عدا الضاد والظاء ، واما التاء التى هى علامة التأنيث عند العرب فهى تؤدى هذا المعنى ايضا فى اللغة البربرية الخ ٠٠٠

ثانيا ـ ان اللغة الفنيقية شقيقتهما السامية الثالثة كانت منتشرة فى البلاد الافريقية زمن الفتح العربى كما حققه لنا المؤرخ اليونانى بروكوب (PROCOPE) المتوفى سنة 562 والذى اقام بافريقية خلال القرن السادس المسيحى يوم كان الكاتب الخاص للقائد البزنطى بليسار ٠ فذكر المؤرخ بروكوب فى كتابه الذى صنفه عن « حروب يستنيانوس (Les Gueres de Justianien - P. 273)

بان « سكان افريقية يتكلمون عدة لغات منها اللاتينية والبونيقية والبربرية التى كانت تتعدد لهجاتها بتعدد القبائل ... »

ثالثا ـ ان اللغة العربية كانت لغة الدين وبها نزل القرآن ، ولا سبيل الى تفهم العقيدة وادراك معالم الدين الا بتعليم لغة الضاد.

رابعا ـ كانت اللغة العربية لغة السياسة ، فالحكومة والسلطات الجهوية اتخذت لها العربية لغة رسمية منذ بداية الفتح .

خامسا ـ لقد اجتهد الخلفاء والولاة فى نشر الثقافة العربية بصفة رسمية ، فعلى رأس المائة الثانية ارسل الخليفة الاموى عمر ابن عبد العزيز الى افريقية عشرة فقهاء لتعليم ابناء البربر مبادىء الدين . واليك اسماء هؤلاء الفقهاء العشرة :

1) ابو عبد الرحمان الحبلى المتوفى بالقيروان سنة 101 هـ
2) ابو مسعود بن مسعود التجيبى
3) اسماعيل بن عبيد الانصارى
4) ابو المهاجر عبد الرحمان بن رافع التنوخى
5) موهب بن حى المعافرى
6) حيان بن ابى جبلة القرشى المتوفى سنة 125 هـ
7) ابو ثعامة بكر بن سواد الجوامى
8) ابو سعيد جعثل بن هامان البتور

9) ابو عبد الحميد اسماعيل بن عبد الله (وقد استعمله عمر ابن عبد العزيز على القيروان وتوفى بها سنة 132 هـ)

10) طلق بن حابان (خابان فى طبقات ابى العرب ص 20 وفى معالم الايمان ج 1 ص 162)

وقد وردت اسماء هؤلاء التابعين بطبقات ابى العرب التميمى صفحة 20 « وبرياض النفوس » للمالكى ما بين صفحة 64 وصفحة 76 وفى الجزء الاول من معالم الايمان ابتداء من صفحة 150 ، كما ذكر البعض منهم « البيان المغرب» (لابن عذارى ج 1 صفحة 27)

سادسا ـ كان ولاة القيروان ينزعون احيانا الى الاستقلال السياسى لشعورهم بالبعد عن مركز الخلافة ، ولربما كانوا يحاولون تأسيس دولة ترتبط اسميا بالخلافة . فهكذا حاول الامراء الفهريون ومن بعدهم الامراء المهالبة تأسيس دولة بالقيروان من دون ان يقطعوا حبل الوصل بينهم وبين دار الخلافة . ولتدعيم سلطانهم سهروا على تشجيع التعليم وتوسيع نطاقه قصد الاستقلال العلمي عن الشرق ولتخريج اطارات الموظفين الصالحين للدواوين الحكومية . فاقبلوا على تأسيس معاهد العلم وجلب علماء مشهورين من الشرق .

وهؤلاء العلماء امثال :

ربيعة بن ثابت الرقى الشاعر

والمسهر التميمى الشاعر

ومحمد بن عبد الله الملقب بابن المولى الشاعر

ويونس بن حميم النحوى

وقتيبة الجعدى الكوفى النحوى

وغياض بن عوانه الاديب اللغوى

وابن الطرماح الاديب اللغوى

سابعا ـ الشعوبية البربرية :

لقد اسلم البربر عن طواعية او صاغرين ، لكن بقيت فى نفوسهم نزعة تواقة الى التخلص من الهيمنة العربية · فلم يجدوا ـ لادراك غايتهم ـ سلاحا امضى وانجع من السلاح الذى استعمله العرب انفسهم الا وهو سلاح الدين · فتمسكوا بمذاهب الخوارج من صفرية واباضية ووهابية لعلمهم بان الخوارج ما انفكوا مناهضين للحكومة المركزية السنية · وقد نبغ من بين هؤلاء الخوارج الافريقيين شعراء وفقهاء وادباء كثيرون وانتشأوا مساجد وجوامع بمدينة القيروان وبغيرها من الامصار الافريقية لاقامة الصلوات ولنشر الدعوة الخارجية وتعليم اصول المذهب · وقد اشتدت عصبية الخوارج السياسية حتى طغت على البلاد الافريقية فافتك الخوارج مدينة القيروان من ايدى الولاة العرب وحاولوا تأسيس دولة بها « فكانت القيروان فى منتصف القرن الثانى للهجرة مرجلا يغلو بالدراسات والمناقشات المذهبية وصارت حلقاتها نوادى تفكير اسلامى ومسارح ملل ونحل وفلسفات» (مراكز الثقافة بالمغرب صفحة 16)

واول من ادخل المذهب الخارجي الى افريقية هو عكرمة المحدث « وكان مجلس عكرمة في مؤخر نتشرت نحلتهم وآراؤهم في الموضع الذي يسمى بالركينة » (طبقات ابى العرب ص 19) · وكان عكرمة يرى رأى الخوارج وعنه امسجد الجامع في غرب المنارة في القيروان وفي بقية انحاء المغرب ومات عكرمة سنة 105 هـ ·

ومن اشهر علماء الخوارج افريقيين الدرجيين النفطي وابو زكرياء (راجع كتاب السير للشماخي) ·

حقا ان الادب الذي خلده لنا ادباء الخوارج ومفكروهم وفقهاؤهم وعلماؤهم لجدير بالعناية والبحث والدرس · فهو جزء لا يتجزأ من تراثنا الثقافي والعلمي · فمن واجب الشباب المثقف ان يعنى بهذا الادب الغابر الصادر من اعماق نفوس اولئك الخوارج المضطهدين · فهو ادب باك ادب منتحب شبيه بادب الاستشهاد الذي ظهر ببلادنا زمن انتشار المسيحية · فهل من شباب يهب الى دراسة هذا الادب؟

ثامنا ـ ظهور المساجد العامة والخاصة والكتاتيب وتكاثرها وقد اسسها اربابها على معنى المدارس يلقون فيها دروسهم على الحلقات احتسابا لوجه الله تعالى ، والى هذه المدارس يرجع الفضل في نشر الثقافة العربية والاسلام في عموم الطبقات الشعبية وفي الجبال والسهول ·

ومن اشهر هذه المساجد بالقيروان جامع عقبة ومسجد محمد ابن خيرون (جامع الابواب الثلاثة) ومسجد ابى ميسرة وجامع الزيتونة بتونس وغيرها كثير لا يكاد يحصى ·

تاسعا ـ ما انفك العـرب يفدون على بلاد المغرب حتى منتصف القـرن الثانى من الهجرة لتأييد سلطانهم . وكانوا عند وصولهم القيروان يوزعهم الوالى على المراكز العسكرية داخل البلاد مثل تونس وباجة وقسنطينة ، او فى المراكز الحربية الواقعة على الحدود مثـل طبنة وباغاى وتيفاش وبسكرة. فكانوا يجتمعون فى وقت السلم ببنى جلدتهم وبالمولدين من ابناء مسلمى البربر يسامرونهم باخبار الجاهلية والاسلام مما لقنوه فى الشرق ، ورووا لهم ما يحفظونه من الاشعار فى ايام العرب ووقائعهم المـروية . وهؤلاء الجنـود الادبـاء امثال سليمان بن حميدة الغافقى المتوفى بتوزر سنة 160 هـ، والمعمر بن سنان التميمى المتوفى سنة 177 هـ.(1)

عاشرا ـ انتشار الرباطيات على كامل السواحل الافريقية ، وسوف يأتى الحديث عنها.

حاديا عشر ـ الرحلات الى الخارج فى سبيل طلب العلم .

ثانيا عشر ـ المكتبات العامة والخاصة وسوف نخصها ببحث.

---

(1) يقول الرقيق القيروانى : « وامر (موسى بن نصير) العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد (بطنجة) ان يعلموا البربر القرآن وان يفقهوهم فى الدين » (كتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق صفحة 70 ـ مطبعة الوسط ـ تـونس 1968 ـ تحقيق المنجى الكعبى والبيان المغرب لابن عذارى الجزء الاول صفحة 42)

## الفصل الثانى

## اغراض التربية عند المسلمين

لم يكن لأمة من الامم ان تجعل للتربية هدفا معينا لذاته وانما التربية عند جميع الشعوب والاقوام البدائية منها والمتحضرة كانت دائما خاضعة لتقاليد الامة وعاداتها ومستلزماتها · وبعبارة اخص كانت التربية ترمى الى ادماج الفرد فى بيئته الاجتماعية ليصبح قادرا على الاضطلاع بما يوجبه عليه مجتمعه · فالمجتمع هو الذى يطبع التربية بطابعه ويشكلها بالشكل الذى يلائم مصلحة الجماعة · فتأثير البيئة فى الفرد اقوى وابلغ من تأثير الفرد فى البيئة الا فى صور نادرة قليلة ·

كان المجتمع الاسلامى ـ فى قرونه الاولى على الاخص ـ متأثرا الى حد بعيد بطابع الدين ـ فكان الدين يسيطر على جميع مناحى الحياة الروحية والفكرية والعلمية اذ كان هو الرائد والدليل للمسلمين ينير لهم السبيل القويم دنيا وآخرة ويتحكم فى تفكيرهم وسلوكهم ·

اجل ان الدين الاسلامى امتاز بكونه صالحا لكل زمان ومكان، وبكونه بعث للانسانية قاطبة لما احتواه من احكام جاءت تسوس حياة البشر لا من حيث المعتقد فحسب بل ايضا من حيث جميع مناحى الحياة : الخلقية والاجتماعية والمدنية والسياسية . فهذه المرونة التى اتسم بها ديننا الحنيف صيرته دستور الامة الاسلامية الاوحد .

فالدين وازع خلقى من الرتبة الاولى اتى بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر : (كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) « سورة آل عمران »

كما ان الدين جاء ضابطا للاحكام التى تربط المخلوق بخالقه مثلما يتجلى ذلك فى احكام العبادات : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدونى » (سورة النجم) .

ومن ناحية اخرى جاء الدين قانونا مدنيا لما تضمنه من الاحكام المدنية (المعاملات والانكحة) والقوانين الزجرية (الدماء والحدود) التى سنها لتنظيم الروابط التى تربط بين البشر (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ـ (سورة النساء) .

واخيرا جاء الدين الاسلامى بدستور للدولة الاسلامية لما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من الاحكام السياسية (يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم ـ (سورة النساء) .

فالدين والسياسة عند المسلمين شيئان متلازمان تلازما مطلقا · ان هذه الميزة التى تميز بها الدين الاسلامى وامتاز بها وحده جعلته يحتل المكانة الاولى فى الحياة الاجتماعية والسياسية بالبلاد العربية والتى شملها الفتح ·

فعلى هذا الاعتبار كانت التربية عند المسلمين مصطبغة الى حد بعيد بصبغة الدين ، فكان الغرض الاول الذى تهدف اليه التربية عندهم هو تفقيه الناشئة فى امور الدين علما وعملا وذلك بتحفيظهم القرآن (قال رسول الله صلعم : ان افضلكم من تعلم القرآن وعلمه ـ رواه البخارى) وتلقينهم اصول الدين من صلاة وصوم الى غير ذلك من العبادات (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ـ حديث شريف)

على ان المسلمين لم يقفوا عند تحفيظ القرآن وتعليم مبادىء الدين ، بل تفطنوا منذ العصور الاسلامية الاولى الى ان حفظ كتاب الله ومعرفة اصول الدين وتسيير شؤون الدولة لا يتم على الوجه الكامل الا بدرس علوم اخرى لا تكتسب بالتلقين ، وانما تحصل بالدرس والتعليم المنظم · فلم يروا بدا من تعميم القراءة والكتابة واللغة العربية وقواعدها وآدابها والحساب ، لا على انها غاية فى حد ذاتها ، وانما كأداة ضرورية للوصول الى ادراك معالم الدين والدنيا ·

ثم تطور التفكير العربى فيما بعد فصار الكثير من المفكرين والعلماء العرب يدرسون العلم من اجل العلم باحثين عن الحقيقة بتجرد مطلق غير متقيدين ، خصوصا عند احتكاكهم بالامم المجاورة

لهم من روم وفرس وهنود واطلاعهم على مؤلفاتهم وتصانيفهم وآرائهم ٠

ومما زاد المسلمين تعلقا بالعلم والتعليم ما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة والاثر المبارك من نصوص تحض على التعليم وترفع مقام العلم والعلماء وتهدى الى تربية المتعلمين وتأديبهم ٠
فلقد قال جل من قائل :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (سورة الزمر)

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (سورة فاطر)

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » (سورة المجادلة)

وقد جاءت كتب السنة المطهرة تعج بالاحاديث النبوية التى تحض على طلب العلم واكتساب المعرفة ، من ذلك ما ورد فى صحيح البخارى :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة) »

« من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا فى الجنة »

« تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا الوقار والسكينة وتواضعوا لمن تعلمتم عنهم العلم وتواضعوا لمن علمتموه العلم ولا تكونوا جبابرة العلماء » ٠

كما اثرت آثار جليلة واحاديث كثيرة تدل بوضوح على عناية السلف الصالح بالعلم والتعليم سواء منهم الخلفاء الراشدون او الصحابة او التابعون او غيرهم من العلماء .

واليكم ما قاله القاضى اسد ابن الفرات الافريقى عند ما وقف خطيبا على رصيف سوسة يوم ابحاره على رأس الجيش الاغلبى الذى جهز لفتح صقلية :

« لا اله الا الله وحده ، لا شريك له . يامعشر المسلمين . ما ولى لى اب ولا جد ولاية قط ، وما رآى احد من سلفى هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام . فأجهدوا انفسكم وأتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته . فانكم تنالون به الدنيا والآخرة . »

## الفصل الثالث

## برامج التعليم فى القرون الخمسة الأولى للهجرة

قد كيف المسلمون برامج التربية عندهم بحسب بيئتهم الاسلامية وبحسب الاغراض التى ترمى اليها التربية فى مجتمعهم.

فبما ان اغراض التربية عندهم كانت خاضعة لسنة التطور الحضرى والفكرى الذى تحدثنا عنه آنفا ظلت البرامج التعليمية هى الاخرى تابعة حتما لتطور اغراض التربية رفعة وحطة . ذلك اننا نرى البرامج فى صدر الاسلام أى على عهد الولاة بالقيروان تنقسم الى قسمين كبيرين ، فقسم شمل المواد الواجب درسها كتعليم القرآن والضرورى من علوم الدين وما من شأنه ان يحقق ذلك كالقراءة والكتابة والعربية ، وقسم اشتمل على التوسع فى علوم القرآن واصول الدين وبحوث اللغة والحساب الذى هو ضرورى لمعرفة الفرائض .

فلما تطورت الحياة الاجتماعية وتعقدت المعاملات وتشعبت مناحى الحضارة اثناء العصر الاغلبى الزاهر تطورت البرامج الدراسية ، فلزم التعمق فى شتى العلوم والغوص فى البحوث وازدهرت سوق الادب ونضج التفكير العربى وتبحر العلماء

الافارقة فى مختلف العلـوم الرياضية وشتى الفنـون كما سنرى ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد.

وعندما جـاء عصر الانحطاط ـ اثر زحفة اعراب الصعيد ـ تسرب الخراب الى المدائن وتقلص ظل الحضارة وكسدت سوق العلم وانحطت البرامج وتراجع الناس الى برامج ساذجة لا تهتم بتنمية الروح والعقل ولا تعمل على اذكاءروح البحث والجدل ، وانما كانت ترمى الى حشو الادمغة بالقشور والسفاسف ، واصبحت البرامـج عبـارة عن محفوظات ومكررات لفظية لا طائـل كبير من ورائها ، فانقطع السند كما يقول ابن خلدون .

## المنـاهـج التعليميـة

انقسمت مناهج البحث والتعليم فى الاسلام بعد ان تطورت العقلية العربية الى قسمين : قسم حافظ على المنهج العربى الخالص ولم يمزجه بشىء من الثقافات غير العربية وآثارها ومحتوياتها وهو منهج اصحاب الحديث فى الحجاز والشام ومصـر والمغـرب ، وقسم اضاف الى المنهج العربى القديم مباحث جديدة استقاهـا من ثقافات الامم المجاورة او المغلوبة على امرها ، وهو منهج اهـل الرأى وهم علماء العراق .

يتميز منهج اهل الحديث بالاعتمـاد عـلى الحـديث النبـوى الشريف يستمد منه احكامه بالاضافـة الى القرآن الكريم « وانما

سموا اصحاب الحديث لان عنايتهم بتحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلى او لخفى ما وجدوا اثرا او خبرا (الشهرستانى الملل والنحل : ص 38) . وهؤلاء هم اهل الحجاز من اصحاب الامام مالك وابن حنبل والشافعى وغيرهم .

ولما استحكم اختلاط المسلمين بغيرهم من ذوى الثقافات والحضارات المجاورة تطورت العقلية الاسلامية وارتقى التفكير العربى ، فكسر قيود التقليد واقام للعقل وزنا عظيما فى استنباط الاحكام . فكلما خلت قضية من حكم يبدو صريحا فى القرآن او فى اجماع اهل الملة التجأ العلماء الى تحكيم عقولهم واتخذوا القياس مطية ، فقاسوا الاشياء وجمعوا النظائر مع النظائر . واهل الرأى هم أهل العراق من اصحاب ابى حنيفة النعمان وابى يوسف يعقوب . « وانما سموا اصحاب الرأى لان عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها . وربما يقدمون قياسا جليا على آحاد الاخبار » (الملل والنحل للشهرستانى ص 38 وص 39) .

ظل الحجاز طوال القرن الاول العاصمة الروحية للاسلام وقد نبغ فيه كثير من الأيمة والفقهاء والمحدثين والادباء وعلى رأسهم الامام مالك بن انس .

وقد اتصل اهل المغرب بمالك وشيوخه وتلاميذه من بعده فى الحجاز ومصر ، فاقبلوا على مذهبه ، واحبوه وتوخوا طريقته ، واختصوا بها . وقد علل ابن خلدون ميل المغاربة الى مذهب الامام

مالك بقوله : « واما مالك فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس بما ان رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز (قصد الحج) وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ، فاقتصروا على الاخذ من علماء المدينة وشيوخهم يومئذ ، وامامهم مالك وشيوخه من قبله ، وتلاميذه من بعده، فرجع اليه اهل المغرب وقلدوه دون غيره ممن لم تصل الينا طريقته » (المقدمة ص 392) ٠

وقد يجوز ان يضاف الى هذا التعليل الذى علل به ابن خلدون اختصاص اهل المغرب بالمذهب المالكى دون غيره تعليل آخر يتمثل فى شدة وجه الشبه الذى نلاحظه فى حياة اهل المغرب واهل الحجاز من شظف العيش والزهد والتصلب فى الرأى ٠

على انه وجد من بين علماء افريقية من اشاعوا المذهب الحنفى وفكرة الاعتزال فالقاضى المجاهد اسد بن الفرات كان يلقى دروسه بجامع عقبة حسب اقوال اهل الرأى وقد ألف كتابا فى مبادىء المذهب الحنفى اسماه « الاسدية » نسبة اليه ٠ ولكن المذهب الحنفى لم يعمر طويلا بالمغرب وذلك لان اهل افريقية كانوا يتحاشون المغامرة فى اعمال الرأى خيفة من الوقوع فى الزيغ والانحراف ٠ فعفا رسم مذهب ابى حنيفة من المغرب تماما ٠ وسوف لن يعود اليه الا مع احتلال الترك للبلاد فى غضون النصف الثانى من القرن السادس عشر مسيحى ٠

ومن ناحية اخرى فان الكثير من القبائل البربرية التواقة الى المحافظة على كيانها السياسى والتى لم تر بدا من الدخول فى

الاسلام ، تمسكت بالمذهب الخارجي وتعلقت به ، لا لغاية دينية بل لغاية سياسية بحتة ، وذلك لان المذهب الخارجي كان مناهضا للحكومة المركزية ولمن يمثلها بالقيروان . فتسبب انتشار المذهب الخارجي في فتن وقلاقل دامية كادت تقضي على النفوذ العربي بافريقية القضاء المبرم . وقد اسس الخوارج بالبلاد الافريقية دولة بني رستم بتاهرت (بالجزائر) وما زالت الى حد اليوم قبائل بربرية كثيرة متمسكة بالمذهب الخارجي من صفرية واباضية (جبل نفوسه بليبيا وجزيرة جربة بتونس وبنو ميزاب (بالجزائر) .

نعم لقد اعتمد المذهب المالكي القرآن الكريم والسنة المطهرة وجعلهما الدعامتين الاصليتين للتشريع ، لكن فقهاء المالكية كانوا يلجأون الى غير هذين الاصلين اذا ما خليا من النص الصريح . فكانوا يعتمدون احيانا عمل اهل المدينة واجماع علماء الملة . واذا ما اعوزتهم كل هذه المراجع حكموا رأيهم اى اجتهدوا . الا ان الكثير من الفقهاء اغلقوا باب الاجتهاد اغلاقا محكما فاصبحوا مقيدين في تفكيرهم ، مقلدين لمن سبقهم ، الامر الذى حكم على تفكيرهم بالعقم لانهم ارتضوا لانفسهم الوقوف عند رأى اصحاب المذهب وحرموا بعده الاجتهاد . وفي ذلك قال عبد الرحمان ابن خلدون : « ولما صار مذهب كل امام علما مخصوصا عند اهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريعها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الأصول المقررة من مذهب امامهم ، وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير او التفرقة واتباع مذهب امامهم فيهما ما استطاعوا . هذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد . واهل

المغرب جميعا (الا الخوارج) مقلدون لمالك » (المقدمة صفحة 392) ٠

والذى زاد التفكير تكبيلا هو عدم التسامح الذى كان يبديه بعض العلماء والأيمة الافارقة تلقاء اصحاب المذاهب غير السنية ، فكان سحنون « اول من فرق حلق اهل البدع من المسجد الجامع وشرد اهل الاهواء منه ، وكانوا فيه حلقا من الخوارج : صفرية واباضية ومعتزلة ٠ وكانوا فيه حلقا يتناظرون ويظهرون زيغهم ٠ فعزلهم سحنون (وقد تولى خطة القضاء بالقيروان سنة 234) ان يكونوا أيمة الناس ومعلمين لصبيانهم ، وامرهم الا يتجمعوا فيه وأدب جماعة منهم بعد ان خالفوا امره » طبقات ابى العرب ص 102 معالم الايمان ج 2 ص 55) ٠

فكانت البيئة السائدة بالقيروان هى البيئة المالكية التى ظلت تسيطر على العقلية الافريقية فى جميع مناحى التفكير قرونا طويلة ٠ فلئن وجد بافريقية العربية فقهاء اجلاء ونحويون بارعون ولغويون متضلعون وادباء ظرفاء فاننا لا نكاد نلقى من بين ابناء البلاد فيلسوفا ولا متكلما (1) ٠ ففقر افريقية من هذا الصنف من المفكرين متسبب مباشرة عن منهاج الفقهاء المتبع بالمغرب ٠

وها نحن سنتتبع تطورات التربية فى البلاد الافريقية واحكامها فسنلاحظ ان المربين الافارقة كانوا يستمدون احكامهم ومبادئهم التربوية من القرآن والسنة اولا وبالذات ٠ واذا ما

1) اذا ما استثنينا من بينهم بعض العلماء الكلاميين مثل ابى عثمان سعيد ابن الحداد الذى اسس المدرسة الكلامية بالقيروان فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة .

اعوزهم هذان الاصلان التمسوا احكامهم من عمل اهل المدينة او الاجماع . واذا ما خلت كل هذه المراجع من الحكم استندوا الى العرف ما لم يكن منافيا للدين اومخالفا للاخلاق الحميدة . وما كانوا يحكمون رأيهم الا قليلا .

لنتناول بايدينا كتاب « رسالة آداب المعلمين »لمحمد ابن سحنون (تحقيق الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب . مطبعة العرب . تونس سنة 1348 هـ) ، وكتاب « الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » لأبى الحسن القابسى (تحقيق الدكتور احمد فؤاد الاهوانى . دار احياء الكتب العربية . القاهرة 1955 م) .

ان هذين الكتابين اول ما صنف فى فن التربية والتعليم بالبلاد الاسلامية . فرسالة ابن سحنون الفت حوالى منتصف القرن الثالث للهجرة ، وكتاب القابسى الف فى غضون النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

فبمجرد ان تتصفح هذين المصنفين يتبادر الى ذهنك المنهج الذى اتبعه مؤلفاهما . فهما متأثران الى حد بعيد بالبيئة التى كان يعيشان فيها ، ومتبعان لمنهج الفقهاء بصورة تكاد تكون آلية . واليك بعض الشواهد على هذا القول :

1 ـ ينادى كل من ابن سحنون (صفحة 50) والقابسى (ص 282 و 285) بوجوب تعليم القرآن وترتيله بدليل قوله تعالى : « ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا

وعلانية يرجون تجارة لن تبور ... (سورة فاطر) وقوله عز وجل : « يا ايها المزمل قم الليل ... الى قوله ورتل القرآن ترتيلا » (سورة المزمل)

2 ـ واما استناد كل من المؤلفين الى السنة النبوية فكثير جدا . من ذلك الحديث التالى الوارد فى العدل بين الصبيان والذى استشهد به محمد بن سحنون (صفحة 42) قوله صلعم : « ايما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين ».

3 ـ وقد يعتمد المؤلفان احيانا عمل اهل المدينة . ففى بيع المصحف قال ابن سحنون (صفحة 61) ما نصه « ... ان ابن مصيح كان يكتب المصاحف فى ذلك الزمان ويبيعها ـ احسبه قال فى زمن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ـ ولا ينكر عليه احد ، ولا رأيت احدا بالمدينة ينكر ذلك . قال : وكلهم لا يرون به بأسا (وقد ورد كلام شبيه بهذا فى الجزء الثالث من مدونة سحنون ص 396) .

4 ـ وقد يستند ان الى القياس احيانا . ففى لزوم تعليم الآباء لابنائهم يقول ابو الحسن بالصفحة 291 ما نصه : « ان حكم الولد فى الدين حكم والده ما دام طفلا صغيرا . أفيدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين ، وتعليم القرآن يؤكد له معرفة الدين ؟ الم يسمع قول الرسول عليه السلام ؟ « كل مولويولد على الفطرة فابوه يهوداو او ينصرانه ... »

5 ـ ومن المسائل التى اعتمد فيها سحنون الاجتهاد قوله: « وأكره للمعلم ان يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان لان ذلك فساد لهم (ابن سحنون صفحة 56) ·

6 ـ وقد اجاز المؤلفان العرف اذا لم يكن قبيحا ، كقول القابسى فى البطالة :« واما تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر فهو يجرى ايضا عرف الناس » ص 317) واما اذا كان العرف مستقبحا انكراه ، كما فى صورة عادة تعليم الصبيان فى المساجد ، حيث قال الامام سحنون : « لا ارى ذلك يجوز لانهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد للتعليم » ابن سحنون ص 55)

وهكذا ترى ان المربين كانوا يعتمدون منهج الفقهاء فى شؤون التربية مثلما كانوا يعتمدونه فى الفقه ·

## الفصل الرابع

## مراكز الثقافة بافريقية

## خلال القرون الخمسة الاولى للهجرة

### مقدمة :

في غضون القرون الاولى من الفتح العربى كانت مراكز الثقافة بافريقية العربية الكتاتيب والمساجد والرباطات والمكتبات العمومية والخاصة وقصور الملوك والامراء والكبراء ودور العلماء وحتى الدكاكين ، ولربما كانت الاسواق والطرقات العامة محلات للتناظر والتباحث .

ولم تكن المدارس والزوايا معروفة فى العصر الذى نؤرخه اى اثناء القرون الخمسة الاولى للهجرة . فاول مدرسة اسست بالمغرب العربى كانت سنة 647 هـ . ولم تظهر الزوايا الا بظهور المتصوفة والطرقيين على عهد الدولة الحفصية .

واما المسرح والتمثيل فكانا مجهولين فى العالم الاسلامى ٠ وقد تحاشى المسلمون نقل هذا اللـون من الثقافـة عما سبقهم او عاصرهم من الامم لمـا خالط هذا الفن من التشبيه بالآلهة وانصاف الآلهة ولما احتوته الميثولوجية الوثينة من زيغ وشرك ٠

هذا وسنفرد فصلا خـاصا للتحـدث عن بيت الحكمـة الذى انشأه الاغالبة بالقيروان ونقلوه الى رقاده ثـم نقله العبيديون الى المهدية فالقاهرة ٠

## مـــراحـل التعليـم :

كان التعليم فى القـرون الخمسة الاولى بافريقية على مراحل متعددة يمكن حصورها فى اربـع مثلما هى الحال اليوم بوجه عام : وتلك هى على التوالى :

اولا ـ التعليم الابتدائى الذى كان يسدى بالكتاتيب ٠ وكانت الغاية منه تحفيظ القرآن الكريم كـلا او جـزءا مع تعليم مبادىء اللغة والحساب كما سنرى ذلك بشىء من التفصيل فيما بعـد ٠ وكان يقوم بهذا التعليم معلمون من حفظة القرآن ثقـافتهم العامة محدودة الا فى النادر ٠

ثانيا ـ التعليم الثانوى الذى كـان يلقى بالمساجد كبيرهـا وصغيرها لصغار الطلاب الذين انهوا تعلمهم الابتـدائى ، وكـان يشمل فنونا متعددة مثل الحديث النبـوى والفقـه واللغـة والنحو والحساب والادب ٠ وكـان هذا التعليم بسيطا نسبيا يتولاه عادة

شيوخ من درجة وسطى او من يريد افادة صغار الطلاب . والدليل على وجود فرق بين التعليم الثانوى والتعليم العالى هو ان عبد الله ابن ابى زيد القيروانى صاحب الرسالة لاحظ ان كتب الفقه التى صنفها المتقدمون مثل موطأ مالك ومدونة سحنون قد انغلقت على صغار الطلاب واستعصت على ادراكهم فالف لهم : « الرسالة » التى كانت اسهل لفظا واجلى عبارة من مؤلفات الأول . ويقال ان ابن خالته الولى الصالح محرز بن خلف هو الذى اشار عليه بذلك .

ثالثا ـ التعليم العالى او الجامعى ان صح التعبير . وكان يتعاطاه الذين آنسوا من انفسهم المقدرة على فهم الدروس التى كان يلقيها كبار الاساتذة ، وكانوا يشدون اليها الرحال متنقلين من بلد الى آخر فى سبيل طلب العلم. فابن رشيق مثلا اتم تعلمه الثانوى بمسقط رأسه بلدة « المسيلة » بالجزائر . ولما بلغ العشرين من عمره أبى الا ان يواصل تعلمه العالى بالقيروان . وكان هذا التعليم العالى يشمل جميع الفنون بما فى ذلك الطب والصيدلة والنجوم التى كان يتعاطاها فحول العلماء امثال « اسحاق ابن عمران الاسرائيلى الذى اقتبس منه القوم علم الطب والتشريح والصيدلة . كما اخذوا الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة عن محمد بن فرج البناء (بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب. المطبعة التونسية . تونس 1330 هـ 1912 م) .

وكان هذا التعليم الجامعى يفضى عادة الى التخصص . فمن يطالع حياة ابن رشيق او ابن شرف يلاحظ انهما تخصصا فى اللغة

والادب · فشيوخهما الذين كانا يذكرانهم بفخر واعتزاز كانوا من اهل اللغة والادب ، واولئك امثال محمد القزاز ومحمد النهشلى وعبد العزيز الخشنى ·

رابعا ـ الدراسات والابحاث ـ ظهرت بظهور بيت الحكمة الذى اسسه الاغالبة على غرار بيت الحكمة الذى كان انشأه العباسيون ببغداد فى العصر نفسه ·

وهذا التقسيم والتدرج فى التعلم طبيعى اوجبته قواعد علم النفس التتبعى حسبما اسهب فى بيانه وتعليله ابن خلدون فى الفصل التاسع والعشرين من الباب السادس من المقدمة ( ص 533) . قال ابن خلدون من جملة ما كتبه فى ذلك الفصل المسهب : « اعلم ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا · يلقى (الاستاذ) عليه (على الطالب) اولا مسائل من كل باب من الفن هى اصول ذلك الباب · ويقرب له شرحها على سبيل الاجمال · ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن · وعند ذلك تحصل ملكة فى ذلك العلم ، الا انها جزئية وضعيفة ، وغايتها انها هيأتها لفهم الفن وتحصيل مسائله · ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة الى اعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ، ويذكر له ماهناك من الخلاف ووجهه الى ان ينتهى الى آخر الفن ، فتجود ملكته · ثم وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته · هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاث تكرارات ··· واذا القيت عليه (على التلميذ)

الغايات فى البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه ، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه . وانما اتى ذلك من سوء التعليم ...»

——«o»——

الفصل الخامس

# التعليم الابتدائى

## الكتاب

يقول ابن منظور القفصى المتوفى سنة 1311 م فى موسوعته « لسان العرب » ما نصه : « الكتاب موضع تعليم الكتاب (اى الكتابة) والجمع الكتاتيب والمكاتب » (الجزء الثانى من اللسان ص 193) وقد يستعمل احيانا ابن سحنون والقابسى كلمة «مكتب» عوضا عن لفظة كتاب ـ ويبدو ان كلمة كتاب جمع كاتب فاطلق المكان على من يعمل فيه وهو من باب اطلاق المظروف على الظرف.

يمتاز الفتح العربى بانه فتح دينى ثقافى قائم على كتاب مبين وهو القرآن الكريم. فما كان هذا الفتح الا من أجل نشر تعاليم الدين الاسلامى ومعالم الثقافة العربية . فلذلك كان الكتاب يصاحب الفاتحين فى حلهم وفى ترحالهم اذ ان الكثير منهم كانوا يستصحبون معهم نساءهم وابناءهم فى تنقلاتهم . فكان الكتاب خيمة من خيام المعسكر قبل تمصير الامصار .

وبمجرد ما اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان سارع العرب الى بناء الدور والمساجد ثم التفتوا الى تأسيس الكتاتيب

لتعليم ابنائهم كتاب الله والضروري من علوم الدين مع ما يلزم لتحقيق ذلك من قراءة وكتابة ٠

والقصة التي اوردها ابن ناجي في معالم الايمان لدليل واضح على ان الكتاب انشيء بالقيروان منذ النصف الثاني من القرن الاول الهجري حيث قال :

« حكى غياث بن شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلف ٠٠٠» (معالم الايمان ـ (الجزء الاول ص 120) ـ ولا يخفى ان دخول سفيان بن وهب الى افريقية كان خلال عام ثمانية وسبعين في خلافة عبد الملك بن مروان ٠ فيستفاد من هذا الخبر انه لم يمض ربع قرن على تاسيس القيروان حتى وجد بها كتاتيب ٠

كان الكتاب ـ وما زال ـ عبارة عن حانوت او حجرة مجاورة للجامع او بعيدة عنه او غرفة في منزل ـ وقد يبنى الكتاب خصيصا لتعليم القرآن يبنيه صاحبه احتسابا ـ ولم يتطور الكتاب في شكل بنائه بالبلاد التونسية الا عند ما حل بهذه الربوع مهاجرو الاندلس الذين اتوا بهندسة خاصة للكتاتيب ، واجمل كتاب اندلسي شاهدناه في هذا العصر هو كتاب بلدة زغوان (تونس)٠

وفي البادية التونسية كان الكتاب خيمة من جملة خيام الحي (خيمة المؤدب) وقد ادركنا كثيرا من الكتاتيب في الخيام انقطعت اليوم تماما بفضل تكاثر العمران والبناء ولشدة عناية

حكومة الجمهورية بانشاء المدارس الابتدائية العمومية منذ فجر عهد الاستقلال ٠

وكان المعلم هو الذى يكرى الكتاب مما يتوفر لديه من الاجارة « وعليه كراء الحانوت وليس ذلك على الصبيان » (ابن سحنون ص 51 والقابسى ص 321) ولا يكون الكراء على الاولياء الا اذا استئجر المعلم على صبيان معلومين سنة معلومة ، فعلى اولياء الصبيان كراء موضع المعلم « القابسى ص 322 » ـ وقال محمد بن سالم بن القطان فى كتاب (أجوبة محمد بن سحنون) : « كان سحنون يكرى بيتا يعلم فيه الصبيان » ٠

وكان السلف يتحاشون تعليم الصبيان بالمساجد تحفظا من النجاسة ٠ فقد سئل سحنون عن تعليم الصبيان بالمساجد فقال : « لا ارى ذلك يجوز لانهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد للتعليم » (ابن سحنون ص 55) ـ وبالرغم من هذا فقد كان كثير من المعلمين ـ وما زالوا ـ يتخذون المسجد كتابا ناهيكم بان كلمة كتاب قليلة الاستعمال ببلاد الجزائر وبالجريد التونسى فهم يستعملون كلمة جامع عوضا عنها ٠

وكان بكل بلدة بل بكل حى كتاتيب عديدة ٠ وقد ذكر ابن حوقل فى كتاب « صورة الارض » (ج I ص 126) بانه عد حوالى ثلاثمائة كتاب فى مدينة بلرمو بصقلية ٠ كما ذكر فى صفحة 129 من الكتاب نفسه انه راى كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة من المعلمين ، والسبب فى تكاثر المعلمين بصقلية راجع الى ان المعلم كان معفى من الجهاد ٠ ففر كثير من الرجال الى هذه

المهنة تفصيا من الجهاد : « ففزع الى التعليم بلههم وحسنه لديهم جهلهم فرارا من الجهاد وشرفه والغزو وعزه » (كتاب صورة الارض ص 129) ٠

لم يكن الكتاب مؤثثا الا ببعض الحصر المصنوعة من السمار او الحلفاء ٠ ولم يكسب المعلم الا المصحف والدرة والفلقة « وعلى المعلم ان يكسب الدرة والفلقة وليس ذلك على الصبيان » (ابن سحنون ص 51) ٠ وكان لكل تلميذ لوح من خشب مصقول ودواة وقلم من قصب ومصحف فى بعض الاحيان ـ وكانوا يمحون الواحهم فى اناء يسمى اجانة « يصبون فيها الماء الطاهر بالتناوب » ٠

## البرامج

لقد رأينا ان البيئة الاجتماعية السائدة فى العصر الذى نؤرخه كانت بيئة دينية ٠ فكان التعليم يرمى اولا وبالذات الى تنشئة المسلم الصالح دينا ودنيا ٠ فلهذا السبب كان برنامج التعليم بالكتاب يعتمد اعتمادا كليا على تعليم مبادىء الدين ٠

وعلاوة على ذلك فان البرنامج احتوى ايضا فنونا لا مساس لها بالدين وانما هى صالحة للحياة الدنيا ، وهى ترفع من مستوى الصبى العقلى والعلمى ٠

فلذلك راى الفقهاء ان يقسم البرنامج الدراسى الى مواد اجبارية يفرض على المعلم تعليمها الصبيان ، والى مواد

اختيارية يعلمها اياهم اذا ما حصل الاتفاق على ذلك بينه وبين الاولياء او تطوعا منه ٠

فالبرنامج الاجبارى يشمل تحفيظ القرآن كلا او جزءا ومبادىء علوم الدين علما وعملا ومبادىء النحو والعربية والقراءة والكتابة ٠

فالقرآن هو كلام الله ومصدر الحدود الشرعية وضرورى لاقامة الصلاة ٠ وقد اجمع فقهاء الملة على وجوب ابتداء التعليم بتحفيظ ما تيسر من كتاب الله ٠ الا اننا نرى بعضهم مثل ابى بكر بن العربى الاندلسى يقول بارجاء تعليم القرآن وابتداء التعليم بمواد تثقف العقل مثل الشعر والعربية والحساب ٠ فاذا ما تكون الطفل عقليا سهل عليه القرآن حفظا وفهما ٠ وقد علق ابن خلدون على هذا الرأى واستحسنه حيث قال : « وهو لعمرى مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعد عليه وهى املك بالاحوال » (المقدمة صفحة 539 ــ 540 طبعة مصطفى محمد. القاهرة).

ان رغبة كل والد هى ان يحفظ ابنه القرآن كله وهو ما يسمى بالختمة ٠ ولكن مواهب الطفل او عوائق اخرى قد تحول دون تلك الامنية فيقتصر الصبى على حفظ نصف القرآن او ثلثه او ما تيسر منه .

ويشترط فى تعليم القرآن حسن الترتيل وجودة القراءة . والقراءة المتبعة فى افريقية هى قراءة الشيخ نافع ٠

ويشتمل البرنامج الاجبارى ايضا على تعليم الصلاة التى هى عماد الدين وما يتبعها من وضوء وتشهد وادعية . ويرى الفقهاء انه ينبغى تعليم الصبيان الصلاة ابتداء من السنة السابعة من عمرهم وان يضربوا عليها اذا كانوا بنى عشر كما ورد فى الحديث الشريف .

وبما ان معرفة القرآن معرفة صحيحة تستلزم الاعراب وجب ايضا على معلم الكتاب ان يعلم تلاميذه المبادىء الاولية من النحو والعربية .

وحفظ القرآن لا يسهل الا بتعلم القراءة والكتابة اللتين جاء القرآن حاثا على تعلمهما فى اول سورة نزلت على النبىء : « اقرأ بسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . »

قال محمد بن سحنون « انه ينبغى ان يعلمهم اعراب القرآن ذلك لازم والشكل والهجاء والخط الحسن » (ص 52) .

واما البرنامج الاختيارى فيحتوى على الفنون التى يمكن للمعلم ان يعلمها الصبيان تطوعا او بشرط وهى : الحساب وايام العرب واخبارها اى التاريخ وجميع النحو والعربية. ففى ذلك قال القابسى « وينبغى له ان يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له الا ان يشترط عليه ذلك . وكذلك الشعر والغريب وجميع النحو هو فى ذلك متطوع . ولا بأس ان يعلمهم الشعر مما لا فحش فيه ومن كلام العرب واخبارها وليس ذلك بواجب » .

ان المقصود من تعليم الصبيان الحساب هى غاية عملية ، فالحساب يعين على اجراء عمليات الفرائض والمعاملات ، وهو صالح للتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه . ولانظن ان تعليمه كان لغاية تثقيفية مجردة .

ان تعليم ايام العرب واخبارها هو تعليم التاريخ . وقد جاء القرآن بذكر قصص الانبياء والبعض من الاحداث التاريخية مثل قصة يوسف وعاد وثمود ـ وذلك للاتعاظ والاعتبار « فاعتبروا يا اولى الالباب » .

لم ير فقهاء افريقية حرجا فى تعليم الشعر ـ وكان اغلبهم شعراء ـ كما كان يراه البعض من فقهاء المشرق ـ ولكنهم يشترطون ان يكون الشعر بعيدا عن الفحش ويكره منه « ما فيه ذكر الحمية (اى التعصب القبلى) والخنا او قبح الهجاء (القابسى ص 305) مستندين فى رايهم على قول النبىء « انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » . والقابسى على الاخص يرى ضرورة تعليم الشعر للصبى « الا انه يقيم لسانه ويفصحه ويانس اليه فى بعض الاوقات ويستشهد به فيما يريد بيانه » (القابسى ص 305) . وهكذا نلاحظ ان القابسى انتبه الى ان الشعر أدب وفن له تأثير حسن على النفس ويزيد ثقافة المرء .

ومن الفنون المستحب تعليمها للصبيان فى كل العصور « ايام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال وذوى المروءات (القابسى ص 304) . وهذا الحصر لا يشمل التاريخ فحسب بل يشمل العلوم الانسانية بصفة عامة . والقصد من ذلك هو تحريك

همم الصبيان وحثهم على فعل الخير والتمسك بالمروءة والتشبه بالرجال الكمل . وهذا له ارتباط متين بتعليم الادب (اى الاخلاق) الذى هو واجب . قال محمد بن سحنون : « وليعلمهم الادب فانه من الواجب لله عليه النصيحة وحفظهم ورعايتهم » (صفحة 53) .

## نظام الكتاتيب

يبدأ الاسبوع الدراسى صبيحة يوم السبت وينتهى عند ظهر يوم الخميس فتكون التخلية الاسبوعية فى النصف الثانى من يوم الخميس وكامل يوم الجمعة .

يبتدىء الصبيان يومهم الدراسى بحفظ القرآن من الصباح الباكر الى الضحى ثم يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر : « ويجعل الكتاب (اى الكتابة) من الضحى الى وقت الانقلاب » (ابن سحنون صفحة 51) . وعند ذلك ينصرفون الى بيوتهم لتناول الغداء ثم يعودون بعد صلاة الظهر (والظهر عند المالكية يصلى بعد الزوال بساعات قلائل ، حسب الفصول) .

وتخصص حصة المساء لتدريس بقية المواد التى نص عليها البرنامج كالنحو والحساب والعربية والشعر وايام العرب .

واما عشية الاربعاء وصباح الخميس فيخصصان للمراجعة والتخابر والاستظهار (القابسى صفحة 314) وتدوم هذه الحصة الى بعد صلاة العصر .

كما يخلى التلاميذ بمناسبة الاعياد حسبما يقتضيه عرف المكان. فبمناسبة عيد الفطر يخلون من يوم الى ثلاثة · « يوما قبل العيد ويوم العيد ويوم ثانيه » (القابسى ص 317) وبمناسبة عيد الأضحى يخلون من ثلاثة ايام الى خمسة (ابن سحنون ص 48) ·

ثم ان العادة شاءت ان يخلى الصبيان يوما او بعض يوم بمناسبة ختم احد رفاقهم تعظيما للختمة ·

ومن هذا النظام يستنتج ما يلى :

اولا : يقدر النظام البيداغوجى القديم قيمة الراحة فى تربية الاحداث ·

ثانيا : لم تكن الراحات الاسبوعية او اليومية مقررة من طرف سلطة روحية او زمنية وانما كان يتبع فيها « عرف الناس » ·

ثالثا : يبدو ان المدارس فى ذلك العصر لم تعطل بمناسبة راس العام الهجرى وعاشوراء والمولد النبوى الشريف ، فمن الراجح ان هذه المواسم لم تكن مدعاة للتخلية ·

رابعا : لم تذكر المراجع التى لدينا وجود راحة او عطلة سنوية ، فالغالب على الظن ان المعلم والتلاميذ لا يبرحون الكتاب كامل السنة الا ما كان من العطل المذكورة آنفا ·

# طرق التعليم بالكتاب

يؤم التلاميذ الكتاب فى الصباح الباكر فيجدون المعلم جالسا فى صدر المجلس ، فيحيطون به فى شبه نصف دائرة قعودا على الحصر ، وفى حجر كل واحد منهم لوحه الذى كان كتبه بالامس · فيشرعون فى الحفظ فرادى كل على شاكلته لانهم غالبا ما يكونون متفاوتين فى الاحزاب · فتتصاعد اصواتهم مشتبكة مختلطة تصم الاذان · واما المعلم فياخذ بيد صغار التلاميذ يعينهم على التهجىء والحفظ والعصا لا تبرح يده يقرع بها راس من خفت صوته او تلهى عن الحفظ ·

وعند الضحى يعرض الصبيان على المعلم ما حفظوه من الواحهم الواحد تلو الآخر · ثم يمحون الواحهم ويعرضونها للشمس او النار حتى تجف · وعند ذلك يحل وقت الكتابة فيبدأ المعلم فى املاء آية مستعملا طريقة غريبة · ذلك انه يملى على التلميذ الاول آية ويتركه يكتب ثم يقبل على الثانى فيملى عليه آيته · ثم يلتفت الى الثالث فالرابع وهكذا دواليك ··· وبعد ذلك يعود الى الاول فيملى عليه متوخيا نفس الطريقة الاولى الى استيعاب الايات المزمع املاؤها على كل واحد منهم ·

وقد يكلف كبار التلاميذ بنسخ احزابهم من المصحف مباشرة ثم يتعقب المعلم كتابتهم لتدارك ما قد يعلق بها من الاخطاء · واذا كان عدد التلاميذ مرتفعا اتخذ المعلم معه عريفا (مكرر) يعينه على الاملاء والكتابة والتعريض · ويشترط

سحنون « ان يكون العريف قد حفظ القرآن وهو مستغن عن التعليم » ٠

وقد يملى كبار التلاميذ على صغارهم : « ولا بأس ان يجعلهم يملى بعضهم على بعض لان ذلك منفعة لهم ٠ » (ابن سحنون صفحة 51) ٠

بما ان التعليم فى الكتاب كان يرمى اولا وبالذات الى تحفيظ القرآن وتلقين مبادىء الدين ، كان يعتمد طبعا الذاكرة اعتمادا كليا (انظر ما كتبناه عن الذاكرة ودورها فى التعليم بالعدد 34 من النشرة التربوية) ٠ وبالرغم من الدور الهام الذى كانت تقوم به الذاكرة فى التعليم فان المربين قد تنبهوا الى انها لا تكفى وحدها لاكتساب المعلومات واقرارها ٠ ذلك اننا نرى القابسى يقسم طريقة التعليم الى ثلاث مراحل : الميل والوعى والاسترجاع ٠

فالميل هو الاقبال على القرآن ومحبته ويحصل بترغيب الصبى فيه ٠ والوعى اى الادراك يحصل باجادة الترتيل والاعراب ٠ والاسترجاع يحصل بالمراجعة المستمرة والتكرار « آناء الليل واطراف النهار » وهى لعمرى نفس المراحل التى نستعملها اليوم فى تعليم كثير من الفنون والتى تنحصر فى التشويق والتفهيم والمراجعة ٠

ومن طرق التعليم ايضا التخاير والتناظر اى التنافس ٠ فالصبيان يجتمعون بعد الظهر يتذاكرون ويتنافسون فى الحفظ

والاعراب وغيرهما · فذلك مما يوقظ الشعور ويشحذ العزائم ويدعو الى الاجتهاد الا ان التنافس قد ينقلب شرا مستطيرا (انظر ما كتبناه فى التنافس بالعدد 8 من النشرة التربوية) · ولم تذكر المراجع التى بين ايدينا كيف كانت طرق تعليم النحو والحساب وايام العرب وغيرها فى العصر الذى نؤرخه · فالغالب على الظن انهم كانوا يعتمدون الحافظة الى حد بعيد ·

## العقـــــاب

لقد جـاء الدين الاسلامى بتقرير مبدأ العقـوبة الا ان الله نصح العباد بالصفح عند المقدرة والحلم عند الظفر اذ قال سبحانه وتعالى : « وجزاء سيئة مثلها • فمن عفا وأصلح فاجره على الله • انـه لا يحب الظالمين » (سورة الشورى) •

فاستنادا الى هذا الاساس جعل المربون التونسيون الرفق مبدأ كـل عقاب على ان يكون الرفق مشفوعا بالحزم •

فنصحوا المربى بالتغاضى فى أول الامر حتى اذا عاد الطفل الى الخطيئة قابلوه بالعبوس ، على الا يكـون المـربى عبوسا مـع التلاميذ دائما خيفة من ان تزول هيبته معهـم • ففى هذا الصدد يقول القابسى « فكونه عبـوسا ابدا من الفظاظة الممقوتة ويأنس الصبيان بها فيجترئون عليه » •

ومن الرفق الا يبادر المعلم بالعقاب اذا استأهل الطفل ذلك وانما ينبه الصبى المرة تلو الاخرى واذا لم يفد ذلك يعذل ويقرع «••• فنبه مرة بعد مرة فاكثر التغافـل ولـم يغـن فيه العـذل والتقريع بالكـلام •••» (القـابسى صفحة 312) •

ويشترط المـربون التـونسيون عـلى الا يكون التقريـع بالكلام البذىء والشتم ، بل هم ينصحون المعلم بان يكون تقريعه « من غير شتم ولا سب لعرض » لعلمهم بان الاهانـة التى تلحق

من جراء ذلك بالصبى تنال من كرامته وتجرح عاطفته وتخدش كبرياءه ، ولربما تسببت له فى عقد نفسية ومركبات يتحتم تجنبها .

كما انهم يوصون المعلم بالا يسلط العقاب وهو فى حالة غضب « فان ذلك الغضب اذا أصابه فانما ضرب اولاد المسلمين لراحة نفسه ، وهذا ليس من العدل (القابسى ص 313) وزيادة على هذا التعليل النفسى يستند القابسى فى حكمه جريا على عادته على الحديث الشريف : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » .

وبما ان حرمان الصبى من راحته وطعامه وشرابه هى اشد عقوبة تسلط عليه لانها تنال من توازنه الجسمى فان المربين التونسين حجروا هذا النوع من العقاب من باب الرفق . وقد كان معمولا بهذه العقوبة فى اروبا الى عهد قريب . وهى منافية لابسط المبادىء التربوية . ففى ذلك يقول القابسى « ومن رفقه بالصبيان ان الصبى اذا ارسل وراءه ليتغدى فيأذن له ولا يمنعه من طعامه وشرابه » (القابسى ص 313) .

ولكن اذا لم تنجح طرق التأديب الآنفة الذكر مع نصح واخافة أدبية وتهديد وعذل وتقريع لجأ المعلم الى الضرب وهو عقاب رادع زاجر فى آن واحد .

والضرب لا يستأهله الطفل الا « اذا افرط فتثاقل عن الاقبال على المعلم فتباطأ فى حفظه او اكثر الاخطاء فى حزبه او فى كتابة لوحه .» ولكن لا يقرر الضرب « الا اذا نبه مرة فاكثر

التغافل ولـم يغن فيه العذل والتقريـع بالكلام » (القابسى ص 312) ٠

ومن المحقق ان عقوبة الضرب لم تكن محببة لـدى السلف ، بـل كانوا يحبذون تجنبها جهد المستطاع ٠

قـال سحنون لمعلـم ابنه محمد « لا تؤدبه الا بالمدح ولطف الكلام ٠ فليس هو ممن يؤدب بالضرب والعنف » (معالم الايمان ٠ الجزء الثانى ص 80) ٠

وفى صورة استئهال الضرب ينبه المربون الى اجتناب القهر والعسف مع المربى لما يورث ذلك فيه من عقد نفسية وسوء خلق وخبث ٠ واليكم ما يقوله عبد الرحمان بن خلدون فى هذا الصدد : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس فى انبساطها وذهب بنشاطهـا ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث »: (المقدمة ص 540) ٠

على ان الضرب الذى اوصى به المربون ينبغى الا يتجاوز ثلاث ضربات على الرجلين : « لا ينبغى لمؤدب الصبيان ان يزيد فى ضربهم اذا احتاجوا اليه (اى اذا استأهلوا) على ثلاثة اسواط شيئا » (ابن سحنون ص 32) ٠

وقد احاط المربون عقوبة الضرب بجمهرة من الاحتياطات حتى لا تؤثر فى نفس الصبى او فى جسمه تأثيرا فاحشا ٠ فمن ذلك : الا يقع الضرب الا على ذنب والا يسلط الا بقدر الاستئهـال

وان يكون الضرب من واحدة الى ثلاث الا فى بعض الحالات يستأذن فيها القائم بامر الصبى ، والا يضرب الصبى فى غير الرجلين « وينبغى ان يكون عود الدرة رطبا مأمونا » (القابسى ص 313).

ان التربية الحديثة والتراتيب المدرسية فى الامم المتحضرة جاءت بتحجير تسليط العقوبات البدنية على الاطلاق ، وذلك لان الضرب يلحق الاهانة بالصبى وينال من كرامته ويوغر صدره على المعلم وينفره من التعليم والمدرسة ويحقره فى اعين رفاقه ويحز فى نفسه ويعلمه الرياء والكذب والمراوغة الى آخره ... فلذلك نرى المربين التونسيين ينزعون الى تحاشى العقاب البدنى .

ومع هذا فاننا نجد مربيا معاصرا لا يرى حرجا فى تسليط عقوبة الضرب احيانا محبذا فى ذلك رأى جون لوك واعنى به الاستاذ جان شتو (Jean Château) الذى يقول : « يجب قبل كل شىء ان يحافظ المربى على هيبته، واذا ما ظلت الاوامر والنواهى غير ناجعة يجب ان تسلط العقوبات ولو ضربا بالسوط . لان المربى اذا فقد بذلك محبة تلاميذه له فلا يفقد هيبته معهم ، ولكن اذا ما فقدتم يوما نفوذكم فقدتم فى آن واحد الهيبة والحب معا . »

(Ecole et Education par Jean Château page 90. Librairie philosophique - Paris 1957

## التـــلاميـــذ

يبدو ان التربية الاسلامية كغيرها فى العصور المتقدمة لم تكن تعنى بالطفل عنايتها بالمواد التى تعلم · فكان العمل التربوى يرمى الى حشو الادمغة بالمعلومات حشـوا عن طـريق الحفظ · فلذلك كان للحافظة دورها فى التعليم فكانت قيمة الطالب تقاس بكمية المعلومات التى تحصل عليها · وقـد انتبه عبد الرحمـان بن خلدون الى هذا الخلل فى التربية الاسلامية · فبعد ان بسط هذه الطريقة التلقينية التى كـانت تعتمد الحافظة الى حد بعيد نقدها نقدا لاذعا وعرض طريقة ترمى الى تكوين العقـل وانماء مختلف الملكات حتى لا تطغى احداهن على الاخرى (انظر الفصول 28 ــ 29 ــ 30 ــ 37 ــ 41 من الباب السادس من المقدمة) ·

كان التعليم فى العصر الذى نؤرخه شكليا مبنيا على الامـر والنهى قوامه التقليد والمحاكاة والانقياد · فلا تحترم فيه شخصية الطفل النامية الا عرضا لان الأول كانوا جاهلين بعلم نفس الطفل · فالمعول عندهم هو ما حصل عليه الصبى من مختلف العلوم وخصوصا ما حفظ من القرآن حفظا صحيحا · ذلك ان الكتاب لم يؤسس قصد اعداد الناشئة للاضطلاع باعباء الحياة وانما كانت غايته تهدف الى اعداد المرء ليكون مـؤمنا بالله ومسلما يؤدى واجباته الدينية على الوجه الكامل (القابسى ص 269) .

يدخل الصبى الكتاب وهو ابن ست سنوات او سبع او اكثر من ذلك حسب الظروف والاحوال · فيحمل من اول يوم على حفظ

القرآن وتعلم ما يساعده على ذلك . واذا ما حفظ القرآن حفظا جيدا جزءا او كلا وجه اما لصناعة يستعين بها على حياته او الى التعليم الثانوى ، ولكن لا يقبل على هذا التعليم الا القليل من الصبيان .

ان التعليم كان حرا ولم يكن للامام على الاولياء جبر فى تعليم ابنائهم .

# الـــزاميـة التعليـــم

لم يرد فى القرآن والسنة ما يوجب الزام التعليم الذى بقى فرض كفاية ، كما ان المسألة لم تتطرح على بساط البحث فى بلاد الاسلام قاطبة . فكان القابسى اول من طرح هذه المشكلة وافتى فيها بوجوب تعليم جميع الصبيان مهما كانت حالتهم المالية . والقابسى الذى هو من عادته مقلد لأيمة المذهب يتعمد الاجتهاد فى هذه القضية الاجتماعية الشائكة ويصدر فيها حكمه بطريقة محكمة .

« وادلة القابسى قوية اخاذة تنقلك من فكرة الى اخرى حتى ينتهى بك الى ان تعليم جميع الصبيان ضرورى وواجب وان هذا الوجوب هو الوجوب الشرعى على طريقة الفقهاء » (الاهوانى : التربية فى الاسلام صفحة 91) .

يتدرج القابسى فى حكمه على النحو التالى (صفحة 290)

1) ـ امر المسلمون بان يعلموا اولادهم الصلاة والوضوء لها ...

2) ـ لا بد لهم اذ علموهم الصلاة ان يعلموهم من القرآن ما يقرؤونه فيها

3) ـ كل والد عاقل لا يقعد عن تعليم ابنه

4) ـ ان حكم الولد بالدين حكم والده ودليله على ذلك قوله صلعم « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانـه »·

5) ـ اذا كان الاب عاجزا عن تعليم ابنه لقلة ما فى اليد فمن مـال الولـد

6 ـ فاذا لم يكن له مال فامـه او اولياؤه الاقرب فالاقرب· وان لـم يكن لليتيم من اهلـه من يعنى بـه فى ذلك فمن تطوع من المحسنين · وان لم يتطوع احد لذلك فالمعلم يعلمه مجانا واجره على الله ، او من بيت مال المسلمين ·

هذا ويـرى القابسى ان ليس للسلطة الحـاكمة ان تجبر الاب على تعليم ابنه اذ قال : « وليس للامام ان يجبره وانما يوعظ ويؤثم » · فبذلك لم تكن فتوى القابسى حاسمة حيث انه لم يجد لها اصلا فى مصادر التشريع وانما الفكرة التى اراد القـابسى ان يصل اليها هى تعليم جميع ابناء المسلمين اغنياء وفقراء ، وهذا هو التعليم الالزامى بعينه اعلنه القابسى فى القرن العاشر الميلادى يوم كانت اوربـا تتخبط فى دياجيـر الجهـل ·

# تعليـــم البنـــات

ان مسألة الزامية التعليم تجـرنا حتما الى مشكلـة تعليم البنات التى اثارت بين المربين المسلمين آراء مختلفة تارة وتـارة متناقضة ٠

لم يرد نص فى القرآن او فى السنة يحرم تعليم البنات ، بل الامر بالعكس ، فلقد وجدنا آيات واحاديث كثيرة تحظ عـلى التعليم من دون ان تجعل ميزا او فوارق بين الجنسين ٠

لكننا نرى من حين لآخـر بعض الكتاب الشرقيين القدامى ينكرون تعليم البنت ٠ فيقـول الجاحظ مثلا فى الجـزء الثانى من كتاب البيان والتبيين صفحة 180 ما نصه :

« وكان يقال : لا تعلموا بناتكـم الكتـاب (اى الكتابـة) ولا تروهن الشعر وعلموهن القرآن ومن القرآن سورة النور »٠ ومن المعلوم ان الجاحظ يستهزىء هنا بمن يريدون تحجير تعليم البنات.

واما ابو العلاء المعرى فكان يكره تعليم البنت وكان يـوصى اهلها بان يجنبوها القراءة والكتابة (كتاب سقط الزند) ٠

وقد ذهب التغـالى بأبى الثناء الألوسى الى ان ألف رسالة خاصة فى تحريم تعليم الفتاة اسماها : « الاصابة فى منع النساء من تعلم الكتابة »٠

ولكن هذه الآراء تعتبر شاذة ، فلقد تعلمت المرأة المسلمة قديما وحديثا ونبغ من بين النساء المسلمات عدد لا يحصى (راجع كتاب شهيرات العرب) ٠

واما فى افريقية فقد طرحت المشكلة على بساط النقش ولم يتعرض الفقهاء الى تحريم تعليم البنات او حتى تكريهه ٠ ولكنهم كانوا يفضلون تعليم البنات على حده غير مختلطات بالصبيان ٠ فقال سحنون فى هذا الصدد « اكره ان يعلم الجوارى ويختلطن مع الغلمان لان ذلك فساد لهن (ابن سحنون ص 56). وقد اتبعه فى هذا القول ابو الحسن القابسى حيث قال : « من حسن النظر الا يخلط بين الذكران والاناث ..»(ص 314) ٠ ثم قال فى الصفحة 392 ما نصه «واما تعليم الانثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ٠ فاما ان تعلم الترسل والشعر وما اشبهه فهو مخوف عليها » (انظر ما كتبناه فى التعليم المشترك بالعدد 37 من النشرة التربوية الصادرة فى افريل 1966 وبجريدة العمل المؤرخة فى 51 اكتوبر 1968) ٠

وكان الامراء والكبراء والاعيان بافريقية حريصين على تعليم بناتهم ٠ فلقد اجتهد القاضى الامير اسد بن الفرات فى تثقيف ابنته اسماء التى نالت من العلم درجة عالية ٠ كما عنى الامام سحنون بتعليم ابنته خديجة التى كانت تحلق حولها الحلقات لتعليم النساء ٠ وكان القاضى عيسى بن مسكين يعلم الصبيان فى النهار « فاذا كان بعد العصر دعا بنته وبنات اخيه ليعلمهن القرآن والعلم » (كتاب المدارك للقاضى عياض) ٠

واذا ما تصفح القارىء كتاب « شهيرات التونسيات » للاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب انتبه الى كثرة النساء المتعلمات اللائى عشن فى هذا البلد .

وكثرة النساء المثقفات من بنات الاسر الكريمة سواء فى المشرق او فى افريقية ينافى ادعاء القائلين بان العرب كانوا حريصين على تعليم الجوارى دون الحرائر لان التعليم يرفع من ثمن الجارية ...

وصفوة القول هى ان الاسلام لم يحرم التعليم على الفتاة ولكن الذى نهى عنه بعض العلماء هو قول الشعر الفاحش . « واما ان تقول الشعر الحكيم الرصين و تتعلم المحكم الحسن والجيد فامر يدعو اليه الشرع » (القابسى) .

# المعلـــــم

لم تكن للمعلم شخصية بارزة فى العصر الذى نؤرخه · فلم يكن من رجال العلم والادب والفقه فى الغالب · بل كان فى عـداد الاجيرين الذين يكدحون اليوم كلـه والسنة كلها للحصول عـلى قوتهم · فلم يشترط فيه الا ان يكون حـافظا للقـرآن وعـارفا بالكتابة وورعا تقيا ·

ومع هذا فقد نبغ افذاذ من المعلمين التـونسيين اشتهـروا بالعلم والصلاح امثال ابى اسحـاق الجبنيانى ومحرز بن خلف الذى لعب ادوارا سياسية هامة ضد الشيعة العبيديين ·

وهنا ينبغى التمييز بين المعلمين الـذين يتولون التعليـم لابناء العامة من عموم الشعب و بين المـؤدبين الـذين ينتدبـون لتعليم ابناء الخاصة من ملوك وامراء وكبراء فى القصور والـدور · فهؤلاء يكونون عادة من أهل العلم والادب ولا يـدعون معلمين بـل مؤدبين · فكانت منزلتهم الاجتماعية عالية بالنسبة لمعلمى ابنـاء العـامة ·

ويبدو ان المعلمين انفسهم كانـوا صنفين : صنف لا يحسن الا القرآن والكتابة وصنف يعرف الى جانب ذلك الشكل والهجاء وعلم العربية والنحو والشعر والحساب · فجعـل القـابسى تفـاضلا بينهما فى الاجارة اذا كانا يعملان معا فى كتاب واحد ·

وقد يستعين المعلم بعريف ينتخبه من بين كبار الصبيان الذين حفظوا القرآن ولكن على شرط الا يلهيه هذا العمل عن تعلمه او ان يكون مستغنيا عن التعليم (ابن سحنون ص 52) ·

كما انه يمكن ان يشترك معلمان او اكثر فى العمل بكتاب واحد · « واما شركة معلمين او ثلاثة واربعة فهى جائزة الا اذا كانوا فى مكان واحد » (القابسى ص 322) ·

وتشترط فى المعلم صفات من الكمال دينية وخلقية وصناعية :

فمن الناحية الدينية يشترط فيه ان يكون تقيا ورعا لا ياتى الكبائر ولا الصغائر قائما بفروض دينية ·

ومن الناحية الاخلاقية يجب عليه ان يكون رفيقا بالصبيان « ومن حسن رعايته لهم ان يكون بهم رفيقا » «فانما هو عوض عن ابائهم » (القابسى ص 211 ـ 312) وان يعدل بين الصبيان « وليجعلهم بالسواء فى التعليم الشريف والوضيع »(ابن سحنون) وهذا مصداق قول النبى (صلعم) « ايما مؤدب ولى ثلاثة من صبية هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين »·

كما يطلب من المعلم ان يلازم الرصانة والوقار مع تلاميذه «فلا يتبسط لهم تبسط الاستئناس فى غير تقبض موحش فى كل الاحيان ·· ولا يضاحك احدا منهم» ولكن على شرط ان لا يظل

« عبوسا ابدا فذلك من الفظاظة الممقوتة ويستأنس الصبيان بها فيجترئون عليه » (القابسى ص 312) ٠

ومن واجبات المعلم ايضا حسن رعاية تلاميذه « لان نظره فيمن التزم النظر له من الصبيان رعاية يدخل بها فى قول الرسول : كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » (القابسى ص 312) ٠

ومن الناحية الصناعية يجب على المعلم ان يكون حافظا للقرآن حفظا جيدا وعارفا بالهجاء والنحو والشكل واصول الدين مع الاخلاص والاجتهاد اللذين هما اساس كل نجاح « فلا يجوز للمعلم ان يشتغل عن الصبيان ٠٠٠ وليلزم الاجتهاد وليتفرغ لهم »... ولا يجوز له ان يرسل الصبيان فى حوائجه ٠٠٠ وعليه ان يتفقدهم بالتعليم والعرض ٠٠٠ وليتفقد املاءهم (ابن سحنون) ٠

ومقابل هذه المسؤولية خولت للمعلم سلطة فعالة على تلاميذه يستمدها من الوالد اذ يقوم مقامه ويحل محله فى تربية الابناء وتثقيفهم « لانه هو المأخوذ بايديهم والناظر فى زجرهم عما لا يصلح لهم والقائم باكراههم على مثل منافعهم » (القابسى ص 312) ٠

لم يكن المعلم يعلم مجانا فى الغالب بل كان يتقاضى ـ مقابل عمله ـ اجرا يتفق عليه مع اولياء التلاميذ اما مشاهرة او مساناة ٠ واحيانا قد لا يقع اتفاق بينه وبينهم بل يترك أمر الاجارة لكرم الوالدين وهمتهم ٠

وكان اغلب فقهاء المسلمين يجوزون اخذ الاجر عن تعليم القرآن وغيره من العلوم . وبالرغم من ان البعض منهم ـ مثل الغزالى ـ كان يستقبح تناول الاجرة عن التعليم نرى القابسى يجترىء على الافتاء فى ذلك بقوله « انه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصبيان ولما تعلم القرآن كثير من الناس . فتكون هى الضرورة القائدة الى السقوط فى فقد القرآن من الصدور والداعية التى تثبت ابناء المسلمين الى الجهالة . فلا وجه لتضييق ما لم يات فيه ضيق » (القابسى ص 215) .

## الخاتمة

نعم لم يكن التعليم فى الكتاتيب مركزا على قواعد بيداغوجية سليمة تضمن للطفل بناء شخصيته النامية واستكمال ملكاته العقلية بالوجه الذى نفهمه نحن اليوم اى حسب مبادىء علم النفس الحديث . ذلك ان الكتاب انما اسس لتحفيظ القرآن اولا وبالذات ثم لتعليم اصول الدين وما يساعد على الحصول على ذلك . فعلى هذا الاساس كان تعليم الكتاب يهدف الى تزكية الروح والسمو بالخلق الدينى .

ومع هذا فان هذه المؤسسة الاجتماعية قامت بدور هام جدا فى حياة الامة الاسلامية العلمية والثقافية . فتعليم الكتاتيب ظل ـ على علاته ـ الوسيلة الوحيدة التى كانت تؤهل

الطلبة الى التعليم الجامعى طيلة احقاب . وقد ساهم مساهمة فعالة فى رفع الامية وتفتح الاذهان والبصائر . فجميع رجال الفكر والعلم والادب والفقه والذين نبغوا فى العالم الاسلامى زاولوا تعلمهم الابتدائى فى الكتاتيب .

## الفصل السادس

## التعليم بالمساجد

### انشاء المساجد :

ان القصد الاول من تشييد المساجد فى الاسلام هو اقامة الصلاة وعبادة الله بدليل قوله تعالى :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله » (سورة التوبة)

« مساجد يذكر فيها اسم الله » (سورة الحج)

« وانتم عاكفون فى المساجد » (سورة البقرة)

« وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا » (سورة الجن)

فلهذه الغاية نفسها اختط النبىء صلى الله عليه وسلم اول مسجد فى الاسلام وهو مسجد قباء الذى بنى على التقوى ثم بنى (صلعم) جامع المدينة ٠

وبعد الرسول بنى العرب الفاتحون جامع الكوفة سنة 14 هـ وجامع البصرة سنة 17 هـ وجامع دمشق سنة 19 هـ وجامع الفسطاط سنة 21 هـ وجامع القيروان سنة 51 هـ وجامع الزيتونة سنة 80 هـ٠

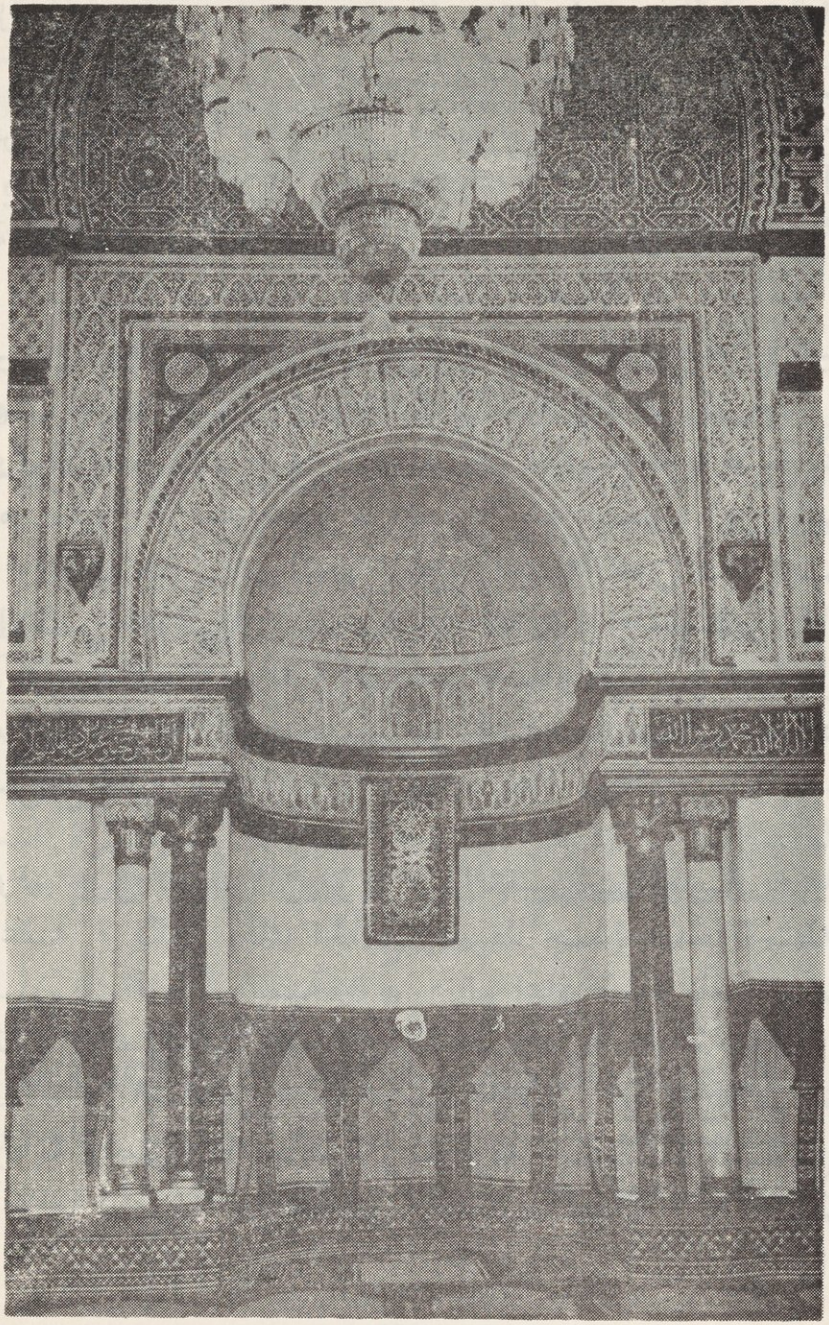

جامع الزيتونة بتونس (المحراب)

لم يبق من جامع القيروان الذى اختطه عقبة بن نافع الا محراب من تراب يرى من خلال لوحات الرخام المخرمة التى تزخرف بها المحراب الحالى . وقد ابقى محراب عقبة على حالته الاولى تبركا باول قبلة بنيت فى افريقية . ولقد ادخل الولاة والامراء الاغالبة على جامع عقبة تغييرات اساسية قبل ان يصبح على هيئته الحالية . من ذلك ان حسان بن النعمان هدمه من اساسه وبناه بناء جديدا سنة 77 هـ . ثم ادخل على الجامع تحسينات وتغييرات على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 157 هـ . ثم جاء زيادة الله الاول الاغلبى فشرع فى تجديد بناء جامع عقبة سنة 221 هـ . الا انه مات دون ان يتم عمله فواصل البناء بعده ابو ابراهيم احمد . واما بلاطة باب البهو وقبته الجميلة فمن عمل ابراهيم الثانى الاغلبى . ومما لا ريب فيه هو ان منبر جامع عقبة الحالى اثر اغلبى ، امر بصنعه الامير أبو ابراهيم احمد وهو منبر عجيب الصنعة يتألف من مائتين واثنتين وخمسين لوحة خشبية تنحصر كل منها فى اطار زخرفى دقيق الشكل .

وقد حل بجامع الزيتونة من التغييرات المعمارية ما حل بجامع عقبة . فكان ذلك الجامع بسيطا جدا عندما اختطه لاول مرة حسان بن النعمان سنة 80 هـ . ثم اعاد بناءه باحسن من ذى قبل القائد الاموى عبد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ . وفى آخر الامر جدده من اصله وزخرفه الامير الاغلبى ابو ابراهيم احمد . وبعد وفاته واصل بناء جامع الزيتونة زيادة الله الثانى سنة 250 هـ . واما الاروقة الاربعة اى المجنبات المحيطة بالصحن فلم تكن

من الوضع الاغلبى بل بنيت على عهد الدولة الصنهاجية . ومما تجدر الاشارة اليه هو ان جامع الزيتونة كان خلوا من المئذنة فى العصور الاولى . فالمئذنة الحالية بنيت سنة 1312 هـ (1896) م . ويحقق لنا الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ان منبر جامع الزيتونة هو الآخر اثر اغلبى . (كتاب الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب ص 120) ج 1 .

ولمزيد التعرف على المساجد التونسية انظر كتاب « آثار تونس الاسلامية ومصادر الفن الاسلامى لاحمد فكرى . تونس 1949» ـ وكتاب «المسجد الجامع بالقيروان» لاحمد فكرى طبع دار المعارف بمصر سنة 1936) .

ومن المساجد الجامعة التى اسست فى العصر الذى نؤرخه والتى كانت فى الآن نفسه معاهد للتعليم يحسن ان نذكر جامع سوسة الذى اسس سنة 237 هـ . ثم زيد فيه بلاطات واروقة على العهد الاغلبى والعهد الصنهاجى . واما رواق باب البهو فقد شيد على العهد التركى (انظر كتاب « سوسة جوهرة الساحل » للاستاذ سليمان مصطفى زبيس ص 22 . المطبعة العصرية . تونس 1965) .

ومن الجدير بالذكر ايضا جميع المساجد الجامعة التى شيدت بالمدن والعواصم الافريقية والتى كانت تعقد فيها حلقات العلم وتلك كجوامع صفاقس وتوزر وقفصة وقابس وباجة وبسكرة وقسنطينة والمهدية الخ . . .

ولفظة مسجد اعم من لفظة جامع فالمسجد هو مكان السجود بصرف النظر عن كونه كبيرا او صغيرا ٠ واما المسجد الجامع فهو واسع الاركان تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين وقد يقوم بادوار هامة فى الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والقضائية كما سنبين ذلك فيما بعد ٠

## دور المسجد فى الحياة العامة

لقد اسلفنا ان المساجد شيدت قصد عبادة الله اولا وبالذات كما دلت على ذلك آيات بينات كثيرة اوردنا البعض منها آنفا ٠ لكن مالبثت المساجد حتى اصبحت مراكز ثقافية ٠ والسبب فى ذلك هو ان الدراسات كانت فى سنى الاسلام الاولى دراسات دينية تشرح تعاليم الدين وتوضح اسسه واحكامه واهدافه وهذه تتصل بالمساجد اوثق الاتصال ٠

وعلاوة على ذلك فان المسجد الجامع كان المركز الكبير للحياة الاجتماعية فى البلاد : ففيه كان الامراء والزعماء يعقدون الاجتماعات العمومية لاخذ راى الامة فى الشؤون الهامة التى يعتزمون القيام بها مثل تجهيز الغزوات وذلك قصد اشراك الشعب فيها ٠ من ذلك ان الزعيم البربرى مخلد بن كداد ـ صاحب الحمار ـ جمع اهل السنة برحاب جامع عقبة بالقيروان سنة 333 هـ ووعظهم ٠ ومن الجامع الكبير انطلق المقاتلون من خوارج وسنية زاحفين الى اسوار المهدية عاصمة بنى عبيد ٠

كما ان الامراء كانوا يجمعون فى الجامع كبار العلماء ووفود الامة بمناسبة اختيار قاضى الجماعة . وكان الجامع ايضا محكمة يتقاضى فيها المتقاضون لدى الامير او لدى القاضى « فكان ابراهيم بن الاغلب الثانى يجلس للعدل فى جامع القيروان يومى الخميس والاثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم ـ (الكامل فى التاريخ لابن الاثير الجزء 7 ص 112) ـ واما محكمة الامام سحنون فهى معروفة الآن باحدى مجنبات جامع عقبة بالقيروان ـ كما ان الفقهاء كانوا يجلسون للافتاء بالجامع ، فكانت تغدو عليهم وتروح وفود المستفتين ـ وكانت حفلات القران ايضا تقام بالجوامع .

وهكذا كان الجامع معبدا ومدرسة ومحكمة ومحل اجتماعات عمومية كما كانت الأكوار (AGORA) عند اليونان والفوروم (FORUM) عند الرومان .

وكان البعض من البطالين يجتمعون بجامع القيروان قصد الاخذ من اعراض الناس وهم الذين تحدث عنهم الخشنى فى طبقاته (صفحة 188) اذ قال : « كانت بالقيروان طبقة تسمى « الركنية » كانوا لا شغل لهم . فكان جلوسهم ومجتمعهم فى ركن الجامع فلزمهم هذا الاسم . وكان الناس يدارونهم ويتقون السنتهم » .

## برامج التدريس بالمساجد

كان التعليم فى بادىء الامر بسيطا يتمثل فى قصص كان

المقصود منها تذكير الناس شؤون الآخرة وتعليمهم امور دينهم وكانت القصص ممزوجة بضروب من العلوم والحكمة والموعظة الحسنة والخرافات فى بعض الاحيان (الاسرائليات) ٠

واستمرت العلوم الدينية من تفسير وحديث تروى فى حلق التعليم بالمساجد ولم تكن مذاهب السنة تمخضت بعد ٠ وكان اصحاب الملل والنحل المختلفة يجتمعون فى المساجد ويتظاهرون فى مذاهبهم ويلقون الدروس فيها ٠ ودامت هذه الحال الى اواسط القرن الثالث عندما تولى سحنون قضاء افريقية سنة 234 هـ فمنع وقتئذ التدريس بجامع عقبة على من لم يكونوا على مذهب السنة (طبقات ابى العرب ص 102 ــ رياض النفوس للمالكى الجزء الاول ص 201 ــ معالم الايمان ج 2 ــ ص 55) ٠

وما زالت العلوم تزداد تنوعا وتشعبا بتقدم الحضارة فتحمض علم الفقه واصبح النحو علما يدرس على حده ٠ وحلقت حلقات لدراسة الادب والتاريخ والحساب والفلك وعلم الكلام والفلسفة والطب والطبيعيات والموسيقى ٠

وكان المذهب السائد هو المذهب المالكى وقد نبغ فيه علماء فطاحل على امثال سحنون وابنه محمد ويحيى بن عمر والقابسى وغيرهم ٠

كما ان المذهب الحنفى كان شائعا بين طبقات الشعب وقد انتشر بفضل اسد بن الفرات وتلميذه سليمان بن عمران ومحمد بن عبدون الرعينى واحمد بن القيار ٠

ولما حكم بنو عبيد الفاطميون البلاد واظهروا نحلتهم الشعية علانية امروا بتعطيل تعليم اصول الشريعة على مذاهب السنة ومنعوا شيوخ القيروان من القاء دروسهم فى جامع عقبة اللهم الا دروس اللغة العربية وما ليس له مساس بالعقائد . فركن شيوخ المالكية والحنفية الى اقراء تلاميذهم تلك العلوم فى بيوتهم ودكاكين حرفهم .

لكن بمجرد نزوح الملوك الفاطمين الى مصر بعد احتلالهم اياها عادت الدراسات السنية الى ما كانت عليه .

# طـــرق التعليـــم بالمساجـد

كان الشيخ يجلس عـلى حصير او على حشية صغيرة او على بساط، ولربما كـان منهـم من يجلس على كرسى حتى يسمعـه كل الحـاضرين · فمن ذلك « ان يحيى بن عمر الكنانى كان يجلس فى الجامع (جامع القيروان ثم جامع سوسة) للاقـراء وينصب لـه كـرسى يجلس عليه ليسمع من بعد من النـاس لكثرة من يحضر مجلسه » المدارك للقاضى عياض · الجزء الثانى ص 10) ·

وكان الطلبة يجلسون حول الشيوخ حلقـات تتفاوت عـددا حسب قيمـة الاستاذ العلمية وحسب الظروف والاحوال · ففى زمن الحرث او الحصاد مثلا يعود اغلب الطلبـة الى باديتهم للقيـام باشغال الفلاحة : قال اسد بن الفرات معاتبا تاجرا كان يختلف اليه باستمرار ويترك تجارته فى سبيـل طلب العلم : « انظـر الى هؤلاء الذين ياتون من باديتهم ، انما هم اهل حرث وحصاد · فاذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم تراحـدا منهم يجىء الينا · فاذا كان انقضى حرثهم وحصادهم عادوا الى ما كانـوا عليـه من الـدراسة (رياض النفوس للمالكى ج 1 ص 185) ·

وكان الشيخ يفتتح الـدرس بالبسملة والحمدلة والصلاة على النبى وربما تلا آيات من القرآن الكريم او احاديث شريفة تحث على طلب العلم ..

اذا كان الشيخ يستمد درسه من معلوماته او من مذكرات كتبها لنفسه فان الدرس يسمى املاء مثل (كتاب الامالى) لسعيد ابن الحداد تلميذ سحنون (219 ــ 302 هـ) وامالى عبد الله بن طالب فى ثلاثة اجزاء (توفى سنة 275هـ) · وفى هذه الحال يتقدم الدرس ببطء وتؤدة يلقى مسألة مسألة او حديثا حديثا · فيدون الطلاب ما يمليه الشيخ فى كنانيش لهم . فاذا ما انتهى المدرس من املاء المسألة او الحديث شرع فى شرحه وايضاحه لفظا ومعنى · فيسجل الطلاب هذا الشرح على هامش الاوراق التى كتب عليها الاصل او قفاها ·

وعند اكتمال امالى الشيخ فى ذلك الفن فانه قد يقرأ الامالى بنفسه او تقرأ عليه لتدارك ما قد يعلق بها من الاخطاء ، وعندها يوقع على نسخ الطلاب ذاكرا انه يجيز الطالب فى ان يروى ذلك الفن عنه او ان يدرسه باذن منه ·

ولكن اذا ما كان الدرس مستمدا من كتاب يمكن للطلبة الحصول عليه فعليهم ان يقتنوا ذلك الكتاب وان يعدوا درسهم قبل موعده · ثم يجلسون الى الشيخ فيقدم للدرس بمقدمة عامة ثم يشرع هو او احد الطلبة فى قراءته من الكتاب ، والتلاميذ يستمعون اليه ناظرين فى نسخهم ويقطع المدرس قراءته من حين الى آخر ليشرح لتلاميذه اللفظة الشاذة او العبارة المغلقة او المعنى العويص · وهكذا دواليك الى استيعاب الكتاب جزءا او كلا ·

ويختم الدرس بقول المدرس « والله ورسوله اعلم » ثم

تتلى فاتحة الكتاب وبعدها يتقدم التلاميذ بشكر الشيخ والترحيم على والديه والدعاء له ٠

وكان لكل طالب ان يسأل اى سؤال لاستيضاح ما صعب عليه ٠ وكانت الاسئلة تجرى تبعا لآداب خاصة « فكان على الطالب ان يسأل تفقها لا تعنتا ولا رياء » (العمدة لابن رشيق) ٠ ثم كان عليه ان يختار الوقت المناسب لالقاء سؤاله ٠

وكان المدرس يقوم احيانا مقام السائل فيلقى على الطلاب بضعة اسئلة ليختبر فهمهم ويجيب بنفسه على ما تعذر عليهم الاصابة فيه ٠

« وكانت طريقة القزاز فى مجلس دروسه ان يلقى على الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ويطرح عليهم ابيات الشعر العويصة ويطلب منهم فك معانيها وتفسير الفاظها » (نقلناه ببعض التصرف من كتاب العمدة لابن رشيق صفحة 211) ٠

وكان الطلاب يعتمدون الحفظ الى حد بعيد ٠ فكانوا يحفظون الى جانب القرآن الكريم وآلاف الاحاديث موطأ مالك وغيره من المصنفات والكثير من القصائد الادبية وقد أثر عن سحنون قوله « العلم صيد والحفظ قيد » ٠

كما انهم كانوا يستعينون بالمدارسة والمناظرة والمذاكرة لاقرار المسائل العلمية ٠ قال ابو العرب التميمى فى ترجمة ابى جعفر احمد بن شهرين بانه قال :« قلت يوما لشيخى ابى العباس

ابن زرزر : اخبرنى بدواء للحفظ . فقال لى : او ما عرفته ؟ فلت : ما اعرفه . فقال : الدرس بالليل والمناظرة بالنهار » .

ويقرر ابن خلدون فى الفصل الثانى من الكتاب السادس من المقدمة متحدثا عن حصول الملكة العلمية « ان ايسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية . فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ...»

وهذه هى الطريقة المثلى التى تستنجد بنشاط الطفل داعية اياه الى البحث والتفكير والكلام وتبادل الآراء مع أساتذته وزملائه . فلقد ادرك المربون التو نسيون منذ زمان بعيد ان التلميذ ليس وعاء تصب فيه المعرفة صبا بل هم ارادوا تشريكه فى تسيير الدرس وحل معضلاته ، وهو ما تقره الطرق الحديثة فى التعليم .

## المـــدرسون

لم تكن خطة التدريس وظيفة حكومية كالقضاء والحسبة مثلا بل كان المشائخ المدرسون يتعاطون التعليم احتسابا لوجه الله يقصدون النفع والثواب . فمن آنس من نفسه المقدرة على تعليم العلم جلس للتدريس فحلقت حوله حلق الطلبة . فبذلك كان التعليم الثانوى مجانا . فكان التعليم فى الملة الاسلامية واجبا من باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو كالجهاد فرض كفاية ان قام به البعض سقط عن الكل .

فكان الشيوخ يعيشون من كد يمينهم او من مساعدة الملوك والامراء واهل الخير من العامة .

حدث عبد الرحمان بن خالد قال : « كنا نسمع العلم من سحنون بمنزله فى الساحل . فصلى يوما الصبح ثم دخل فخرج علينا وعلى كتفه محراث وبين يديه زوج بقر مقرون فقال لنا : ان غلامى حم البارحة فانا اريد ان اذهب لاحرث مكانه ثم ارجع اليكم. فاذا فرغت فاسمعكم » (رياض النفوس للمالكى الجزء الاول صفحة 185) .

ويؤيد هذا الخبر ما رواه يحيى بن عمر الكنانى اذ قال : « لما قدمت من المشرق سألت عن سحنون فقيل لى : خرج الى البادية . فجئته الى الساحل . فرايت رجلا اشقر عليه جبة صوف ومنديل وهو متول حرثه وشؤونه » (المدارك للقاضى عياض ج 1 ص 206) .

كما ان العلماء كانوا يتلقون احيانا الهدايا والعطايا السنية من رجال الدولة وكبار الاعيان . فاليكم ما رواه حمدون النعجة متحدثا عن استاذه ابى الوليد عبد الملك المهرى شيخ اهل اللغة والنحو حيث قال : « كنا نقرأ عند المهرى يوما فقال لنا : اخرجوا بنا الى ماجل (مهرية) نتفرج . وكانت داره بالقرب من سوق الاحد بالقيروان . فخرجنا وجلسنا نتناظر حوله الى ان مر بنا نحو عشرين بغلا او اكثر ومعها رجل راكب . فلما رآى المهرى عدل اليه ونزل ثم قال له : يقرأ عليك مولاى السلام (وهو الوزير ابو على بن حميد) وقد وجه اليك بهذه الدواب وهى محملة طعاما وعسلا وزيتا وخلا وبهذه العشرين دينارا فاقبضها » .

وكان الموسرون من الطلبة لا يبخلون بمالهم عن مشائخهم الذين يسمحون لانفسهم قبول الهدايا من تلاميذهم . فاليكم ما حكاه الدرونى متحدثا عن استاذه المهرى السالف الذكر : « مر المهرى بناحية القيسارية عند الصيارفة ، فقام اليه فتى كان يختلف اليه ويسمع منه ، فقال له : الى اين اصلحك الله يا أبا الوليد فقال : الى سوق الطعام اشترى بهذين الدينارين قمحا . فمد الفتى يده الى صرة كانت فى كمه قدمها اليه وقال : استعن بهذا ـ اصلحك الله ـ على شرائك القمح » الزبيدى ـ طبقات النحاة ) .

## لباس المشائخ المدرسين

يقول الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى بساط العميق صفحة 24 ما نصه : ويمتاز العلماء وارباب الرتب بلبس

الاسماط والشروف (؟) والفرو والسامور . وتعوض عندهم العمامة بالقلنسوة وقد يختلف شكلها من قصيرة الى طويلة .

وروى ابن ناجى فى معالم الايمام (ج I صفحة 232) عن ابن غانم قاضى القيروان « انه انصرف يوما من جامع القيروان الاعظم بعد صلاة الجمعة . فدخل عليه بعض اصحابه فسأله ابن غانم : حضرت اليوم الجمع ـ قال نعم ـ قال : كيف رايت اصلحك الله ـ قال رايت به سبعين قلنسوة للقضاء وثلاثمائة قلنسوة فقيه. فترجع ابن غانم وقال : مات الناس » .

وكان بعض الشيوخ يتانقون فى اللباس. فاليكم ما ذكر سليمان بن سالم متحدثا عن لباس شيخه الامام سحنون : « رأيت لسحنون ساجا كحليا (اى شانا أسود) وساجا أزرق ورداء (اى حرام) وقلنسوة زرقاء وشيا وقلنسوة تشبه الاغلبى . فاذا قعد للسماع لبس الساج الازرق والقلنسوة الزرقاء. وكان له برنس اسود يلبسه فى المطر والبرد » الجزء الاول من المدارك للقاضى عياض صفحة 206) .

وقال حبيب تلميذ سحنون : « خرج سحنون يوما وعليه برنس وكان يلبس الشاشية الطويلة » .

## الفصـــل السابـع

## الـرحلـة فى طلب العلـم

لما تـم الفتح بافريقية واستتب الامن بربوعها هب ابنـاء البلاد من عرب وبـربر الى طلب العلم · واذ كانت افريقية مفتقرة الى العلماء فى اوائل القرن الثانى ، اضطر الطلاب الى الارتحال الى الشرق كى يستقوا العلم من مناهله والمعرفة من معينها · وكانوا يتكبدون المشاق ويركبون الصعاب ضاربين اكباد الابل فى سبيل طلب العلم ·

وكان الطلاب المغاربة اول مـا يمرون بمصر فيأخذون عن علمائها امثال : اشهب وابن القاسم والامام الشافعى · ثم يؤمون الحجاز لاداء فريضة الحج والسماع من علماء المدينة الكثرين امثال : مالك بن انس وسفيان الثورى وشيوخهما وتلاميذهما · فلذلك مال اهل المغرب الى المذهب المالكى واختصوا بـه كما بينا ذلك سالفـا ·

عبد الرحمان بن زياد ، وخالد بن كبر علماء القـرن الثانى امثال : فهكذا ارتحل الى الشرق ا ربيعـة ، واسد ابن الفـرات ،

وسحنون بن سعيد ، ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون ، وغيرهم كثيرون .

ولما انتشر العلم بافريقية بفضل هؤلاء الرحالة الاعلام وتلاميذهم ، وبفضل من ورد على القيروان من علماء المشرق جعلت الرحلات تقل بل صار الطلبة يؤمون القيروان من كل حدب وصوب، من الاندلس والمغرب الاقصى والجزائر وصقلية وطرابلس وبرقة.

وبالرغم من ازدهار العلم بالديار الافريقية ظلت الرحلة الى الشرق مستمرة . وكان الطلبة الافارقة وما زالوا ـ يفتخرون بالاستماع الى علماء الشرق والتتلمذ لهم .

ولربما كان الداعى الى هذا الميل اسباب عديدة ، منها :

اولا : بما ان الحج الى بيت الله الحرام فريضة ، كان كثير من العلماء والطلاب يؤدون هذه الفريضة فيغتنمون فرصة وجودهم بالشرق للاستماع الى شيوخ الحجاز وغيرهم .

ثانيا : كانوا يرون من التبرك الجلوس بالحرم النبوى الشريف والتعلم فيه .

ثالثا : ما كان يشعر به المغاربة من مركب النقص ازاء الشرقيين . فلربما كانوا يعتقدون ان العلم لم يوجد الا فى الشرق وان علم اهل المغرب ابتر ناقص .

رابعا : الاقتداء بالسلف الصالح الذين كانوا تعلموا بالشرق يوم كان العلم مفقودا من افريقية .

خامسا : ان عامة الناس كانوا يولون من تعلم بالشرق اهتماما كبيرا خصوصا اذا جاءهم مرتديا لباس اهل الشرق ويتكلم بلهجتهم ٠

سادسا : حب الاطلاع والتعرف على البلدان

وبالرغم من هذه التبعية التى كان يشعر بها اهل المغرب تلقاء الشرق ، نشاهد نزعة تحريرية عارمة تنتاب المغرب بصفة عامة ، وافريقية بصفة خاصة : فما ان استقلت البلاد استقلالها السياسى على يد بنى الاغلب ، حتى هبت تنشد استقلالها العلمى واكتفاءها الذاتى ٠ فبرز فيها علماء اجلاء صنفوا مؤلفات نفيسة تنافس المصنفات الشرقية ٠ ولربما الفوا فى فنون لم يسبقهم اليها اهل الشرق ٠ فقد صنف اسد بن الفرات كتاب « الاسدية » فى الفقه ، والف الامام سحنون مدونته المشهورة التى فرضت نفسها على اهل الشرق والف ابن سلام كتابا فى التفسير ٠ ومن العلوم التى سبق بها الافارقة غيرهم : كتاب الحسبة واحكام السوق واداب السماسرة ليحيى ابن عمر ٠ وآداب المعلمين لمحمد بن سحنون ٠ كما الف احمد بن الجزار كتبا ثمينة جدا فى الطب والصيدلة والجغرافيا والتاريخ ٠ وظهر نحاة وادباء وشعراء لا يقلون علما عن علماء العراق ٠ وهؤلاء امثال ابى الوليد المهرى وحمدون النعجة والحسن السبيخى وعبد الله المكفوف الخ ٠٠٠ وقد اقتصرنا هنا على ذكر بعض علماء القرنين الثانى والثالث ٠ ومما يدل على علو كعب هؤلاء الاعلام امران :

اولا : ظهور كتب الطبقات الافريقية كطبقات ابى العرب التميمى وطبقات المالكى وطبقات الخشنى وطبقات النحاة للزبيدى

ثانيا : ان الكثير من المؤرخين الشرقيين ترجموا لعلماء المغرب . وهؤلاء امثال ابن خلكان والقفطى وياقوت الحموى والسيوطى .

وكان المغاربة على تمام الشعور بوجوب ابراز شخصية أدبهم وتحريرها من التبعية . وقد حاول ابن بسام فى مقدمة كتاب « الذخيرة » ان يثبت ان للادب المغربى ذاتيته الخاصة به التى جعلته يتفوق على الادب الشرقى فتراه يندد على اهل زمانة من اجل تعلقهم باهداب الشرق ، اذ قال : «... الا ان اهل هذا الافق (الاندلس) ابوا الا متابعة اهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتاده ، حتى لو نعق بتلك الافاق غراب ، وطن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ... فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك واخذت نفسى الجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن اهل بلدى وعصرى...»

ولم ينفرد ابن بسام بهذه الفكرة التى تدل على حدة الصراع بين النزعة القومية فى الادب المغربى وتيار « التمشرق » (1)

1) ان كلمة « التمشرق » لفظة ابتكرها صديقنا الاستاذ جعفر ما جد اثناء المشادة القلمية التى دارت بينه وبين الاخ ابى القاسم كرو على صفحات جريدة العمل التونسية . وهى تدل على التعلق باهداب المشرق واثبات التبعية اليه (انظر جريدة العمل بتاريخ 29 اكتوبر و 12 نوفمبر 1965 وما بعدهما) .

آنذاك ، بل سبقه بها ابو (الوليد الحميرى الاندلسى فى كتاب « البديع فى وصف الربيع » حيث قال : ... ولست اودعه الا ما ذكر لاهل الاندلس فى هذا المعنى . واما اشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها ، والنظر اليها حتى ما تميل نحوها النفوس ، ولا يروقها منه العلق النفيس ...» .

وخلاصة القول هى ان الحركة العلمية الاولى التى ظهرت بافريقية العربية كانت مبنية على الارتحال لبلاد الشرق قصد الكرع من حياض العلم . ولما تكاثر العلماء بافريقية وبرزت مصنفاتهم فى شتى العلوم قلت حركة الارتحال ، ولكنها لم تنقطع ابدا الى يوم الناس . ولا غرابة فى هذا حيث ان اختلاط الامم ، وتبادل الآراء ، وامتزاج الافكار ، والاختلاف الى الاساتذة لمما يعود بالفائدة على الطلاب . وفى ذلك يقول عبد الرحمان بن خلدون فى الفصل الثالث والثلاثين من الباب السادس من المقدمة « ان الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم ، والسبب فى ذلك ان البشر يأخذون معارفهم واخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما والقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة . الا ان حصول الملكات عن المباشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا ...»

على اننا نرى اليوم طلابنا يقصدون جميع بلاد الدنيا طلبا للعلم ، سواء فى ذلك الشرق والغرب ، فالعلم ضالة الانسان ينشدها حيث كانت .

## الفصل الثامن

## المكتبات

لقد اعتنت الامة العربية بجمع الكتب وبتاسيس المكتبات العمومية والخاصة اعتناء لم يضاهها فيه غيرها من الامم المتقدمة. ولطالما تحدث المؤرخون عن المكتبات التى اسست فى امصار الشرق العربى والاندلس على ممر العصور . غير اننا لم نعثر على مباحث تكون خاصة بدور الكتب بافريقية العربية طوال القرون الخمسة الاولى . فما امكن جمعه من المعلومات المتفرقة فى هذا المضمار انما عثر عليه عرضا فى كتب السير والتراجم.

يبدو ان العرب كانوا مولعين بجمع مصاحف القرآن ونسخها طوال عهد الولاة الذى كان تتخلله فتن وحروب الهت الامراء عن جمع الكتب وتأسيس المكتبات .

فلما تم الامر لبنى الاغلب واستتب الامن وعاد النظام الى نصابه صرف الامراء الاغالبة عنايتهم الى الناحية الثقافية كما ان الخواص من اهل العلم اخذوا فى جمع الكتب . فجلبت من الشرق

مصنفات كثيرة وانصرف خطاطون الى النسخ وانكب علماء على الشكل والتصحيح فاصبحت سوق الكتب رائجة رواجا ملحوظا بافريقية ابتداء من النصف الثانى من القرن الثالث ٠

يحدثنا ابراهيم الرشيق بانه « كان يوجد فى احدى قاعات القصر الابيض بالعباسية خزانة كتب حافلة يطالع فيها امراء الاغالبة ٠ وكان يشرف عليها بعض فتيانهم المقربين ٠ فلما ابتنى ابراهيم الاصغر رقادة (س 264 هـ) وحول اليها حاشيته ودواوينه نقل تلك الخزانة برمتها من العباسية الى مدينته الجديدة » (ورقات ج I صفحة 327) ٠ وقد جلب هذا الامير الصالح من الشرق جمهرة من العلماء ٠ وكثيرا من الكتب النفيسة (طبقات النحاة للزبيدى) ٠ وقد نسج على منوال هذا الامير من خلفه من ملوك بنى الاغلب وهما ابنه عبد الله وحفيده زيادة الله ٠

وعندما اسس الفاطميون مدينة المهدية نقلوا اليها بيت الحكمة الذى كان شيده الاغالبة برقادة بما فيه من كتب وآلات رصد وادوات واعلاق نفائس ٠ ولما انتقلوا الى القاهرة حملوا ما تجمع عندهم من تلك النفائس العلمية ٠ فمكتبة رقادة كانت هى النواة الاولى لمكتبة الفاطميين بمصر ٠

ولم يقتصر العبيديون على الاستحواذ على مكتبة بيت الحكمة برقادة بل صرفوا عناية فائقة الى جلب الكتب واستنساخها وفى تاسيس المكتبات ٠ والاجدر بالذكر منهم هو الامير المعز لدين الله الفاطمى الذى اسس مكتبة عظيمة بالمنصورية قرب القيروان وجلب اليها الكتب التى كانت بالمهدية ٠ وكان يرسل وفودا الى

جميع انحاء العالم الاسلامى لاقتناء المؤلفات على مختلف انواعها ومشاربها وفنونها ٠

ولم تبلغ المكتبات الملكية والخاصة والعامة شأنا عظيما لا يضاهى الا فى مدة الدولة الصنهاجية ٠

فعلى عهد هذه الدولة ازدهرت العلوم وبلغت الحركة الادبية ما لم تبلغه فى اى عصر من عصور التمدن العربى الافريقى ٠ وكان بلاط المعز الصنهاجى من ابهج قصور ملوك الاسلام فى ذلك العهد ٠

فالمكتبة التى اجتهد المعز بن باديس الصنهاجى فى توفيرها واثرائها بانفس المصنفات كانت تضم عشرات الالآف من الكتب النفيسة ٠

وعلاوة على تلك المكتبة الفاخرة كانت حركة تحبيس الكتب واسعة النطاق ٠ وما زالت كتب ومصاحف كثيرة من مخطوطات ذلك العهد موجودة الى حد الآن بمكتبة القيروان العتيقة.

فزيادة على الامراء كانت الاميرات الصنهاجيات يحبسن الكتب التى قد ينسخنها بايديهن احيانا ٠ فالاميرة أم ملال عمة المعز وفاطمة حاضنة ابيه وأم العلو اخته وزليخاء زوجته حبسن كثيرا من الكتب التى ما انفكت قائمة الذات بمكتبة القيروان ٠ فهى تعد بحق آية فى جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق ٠

واليكم نص تحبيس كتب على اول صفحة من كتاب موقوف :
« مما امر بتحبيسه سيدنا سيف الله عبده المعز لدين الله المؤيد لسنة نبيه أطال الله بقاه وأدام عزه وعلاه ، على المسجد الجامع بمدينة القيروان ، طلبا لثواب الله عز وجل وابتغاء مرضاته ، على يد قاضى القضاة عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم سنة اربع وعشرين واربعمائة ».

كانت المكتبات الاميرية موجودة بالقصور واما المكتبات العامة فكانت بالمساجد والرباطات . فكان الامراء والخاصة والعامة يحبسونها احتسابا .

كان الخاصة من العلماء مولعين بجمع الكتب واستنساخها ينفقون عليها الاموال الطائلة .

فالقاضى عيسى بن مسكين المتوفى سنة 290 هـ كان جماعا للكتب . حكى عنه تلميذه الكاتشى فقال : « ادخلنى عيسى مدة قضائه برقادة بيتا مملؤا بالكتب من جمعه وقال : كل هذه الكتب رواية لى وما فيها كلمة غريبة الا وانا احفظ لها شاهدا من كلام العرب » (الديباج لابن فرحون ص 180) .

وممن كانوا مولعين بجمع الكتب : محمد بن سطام المتوفى سنة 313 وحمدون بن مجاهد الكلبى المتوفى سنة 322 وابو العرب التميمى المؤرخ الشهير المتوفى سنة 333 .

ومن اكبر المكتبات واجلها فى ذلك العصر مكتبة آل الجزار الاطباء ولا سيما خزانة احمد ابن الجزار الحكيم الشهير .

قال ابن جلجل الاندلسى : « وجدت له بعد موته اربعة وعشرين الف دينار ذهبا وعشرين قنطارا من الكتب بين طبية وغيرها » (طبقات الاطباء ج ١ ص 38) ٠

وقد اشتهر خطاطون بفن الخط والتزويق والتسفير والتذهيب نذكر من بينهم :

ابراهيم بن سوس الماردينى وعبد العزيز بن محمد القرشى والحارث بن مروان وابنه يحيى وعلى بن احمد الوراق « الذى كان ملازما للبلاط الصنهاجى » . وكان يميل بخطه الى اوضاع الكتابة البغدادية الراقية مع اتقانه البديع للرسم والتذهيب ٠ وكانت تعاصره وتلازمه فى البلاط (درة الكاتبة) (معالم الايمان ج ١ ص 224). وقد وصل الينا من آثار مصحف كتبه مع درة وهو مصحف الحاضنة البديع الصنع والموجود الآن بالمكتبة العتيقة بالقيروان ٠ واليكم نص ما على الورقة الاولى من كل جزء من اجزائه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ٠ كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده على بن احمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله على يدى (درة) الكاتبة سلمها الله ٠ فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار ، آمين رب العلمين ٠ وصلى الله على النبيء محمد وسلم تسليما » ٠ وتاريخ التحبيس شهر رمضان من سنة 410 هـ ٠

وكثيرا ما نرى على الكتب الموقوفة : « حبست ووقفت هذا الكتاب على من يقول بقول مالك واصحابه » ٠

وقد اطلعنا صديقنا السيد عثمان جراد حافظ المكتبة العتيقة بالقيروان على نماذج رائعة من المصنفات والمخطوطات التى يرجع تاريخها الى العهد الذى نؤرخه . فامكننا ان نطلع على صحف مكتوبة فى العهد الاغلبى بالخط الرقعى الجميل على الرق الازرق البديع . كما شاهدنا مصاحف عجيبة الخط والتزويق والتسفير والتجليد يرجع اغلبها الى العهد الصنهاجى .

لم تكن الاسفار ضخمة فى حد ذاتها وانما كانت مجزأة الى كتب او اجزاء لا يتجاوز الواحد منها 24 ورقة من الرق الملون او الابيض، والورقة مستطيلة الشكل يتراوح طولها بين 22 و30 صمم وعرضها بين 15 و 20 صمم ولربما وضعت تلك الاجزاء او الكتب فى «ربعة» من خشب مغشاة بالجلد .

نحن لا نعلم بالضبط أكان للمكتبات شكل معمارى خاص كما هو الشأن بالنسبة للمكتبات الرومانية (انظر ما تقدم) . واما الذى نعلمه هو ان المكتبات كانت موضوعة فى حجرات خاصة بها وكان عليها حافظ يسمى الخازن . ويغلب على الظن ان الكتب لم تكن مرتبة فى رفوف كما هو الحال اليوم وانما كانت تصان فى قماطر مرتبة حسب فنونها . كما انه لم يمكن الى حد الآن العثور على مكان المكتبة القيروانية بالضبط . واما المكتبة الحالية فهى عبارة عن المعبر الذى يوصل مقصورة الجامع بالخارج وهى ضيقة الارجاء وقليلة الكتب . وقد احصى السيد البهلى النيال محتويات المكتبة العتيقة على ما هى عليه اليوم . كما ان السيد ابراهيم شبوح نشر « سجلا قديما لمكتبة جامع القيروان » القاهرة 1957) اثبت فيه ان اقدم وثيقة مؤرخة هى نص التحبيس

الذى كتبه بخطها (فضل) مولاه ابى ايوب احمد سنة 295 هـ وقد اكتشف ذلك فى الجزء الحادى والاربعين من كتاب المعجزات) ٠

كانت أدوات الكتابة متنوعة وكثيرة يصنع اغلبها بالقيروان ٠ فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة او على البردى المصنوع من قصب خاص وكان أجوده ما يجلب من مدينة الاسكندرية ٠ كما اهتدوا فيما بعد الى صنع الورق من الخرق البالية ٠ وكانت النساء هن اللواتى يصنعن هذا الورق مثلما يصنعن اليوم ورق الملصوقة تماما ٠ وبعد ان يجف الورق تمر عليه غيراء لزجة تزيده صقالة ومتانة ٠

واما الحبر فكان يصنع من الصمغ أو الصوف او من مواد كيمياوية ٠ وكانت المحابر تصنع من الخزف او الزجاج فى شكل مخروطى او من النحاس ٠ وقد رأينا بمتحف الرباط بالمنستير نموذجا رائعا من المحابر يرجع عهده الى العصر الفاطمى ٠ وهو عبارة عن مخبرة وكنانة لوضع الاقلام واناء لوضع الرمل الملون الصالح لتجفيف الكتابة فى اسرع وقت ٠ كل ذلك مصنوع من النحاس وملحوم مع بعضه ٠ وقد اطلعنا صديقنا السيد الشاذلى العلانى القيروانى على مخطوط سقطت منه الاوراق الاولى يتحدث خاصة عن ادوات الكتابة فى العصر الصنهاجى ٠ وقد صور منه استاذنا السيد عثمان الكعاك نسخا عديدة اودعها المكتبة القومية بتونس ٠ وكم نحن نود ان تنجز اللجنة الثقافية بالقيروان طبع هذا الكتاب الثمين برا بالوعد الذى قطعته على نفسها ٠

## الفصل التاسع

## الرباطات

من أهم مراكز الثقافة بافريقية العربية وأنشطها حركة علمية الرباطات ٠

ما هو الرباط ؟

الرباط ثكنة عسكرية محصنة ذات صحن واسع تحيط به غرف وقد يكون على طبق واحد او على طبقين تعلوه صومعة مستديرة للآذان وخصوصا لمراقبة السواحل اتقاء الغارات البحرية الموجهة من طرف اساطيل الروم ٠ ان الرباط حصن دفاعى اولا وبالذات يرابط فيه من حبسوا حياتهم على الجهاد فى سبيل الله. فلذلك نرى جميع الاربطة مبنية على سواحل البحر ٠ فكان المرابطون يقيمون فى الرباط يقضون يومهم او سواد ليلهم فى العمل او فى العبادة ، وكانت الاربطة تتصل ببعضها بواسطة العلامات النارية او بواسطة الحمام الزاجل ٠ وكان ازاء كل رباط للرجال رباط للنساء يتعبدن فيه ويعن الرجال فى الاشغال الفلاحية وغيرها ٠

كما ان الرباط مدرسة من الدرجة الثانية يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب . فكان الامام سحنون ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون والامام المازرى وغيرهم من العلماء يقضون شهرا من العام فى الرباط حيث يدرسون العلم احتسابا . ومشاهد القبور التى وجدت بالاربطة لدليل واضح على مرابطة العلماء بها .

وكان المرابطون يقومون بعدة أشغال ثقافية مثل صنع الورق والحبر وينسخون المصاحف وكتب الفقه والحديث. فالمؤلفون يحبسون تصانيفهم بخط ايديهم على الاربطة لتكون منها النسخة الام التى تنسخ عليها نظائر ويرجع الى نصها الصحيح عند الاشكال ـ يتولى المرابطون نسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم بالمجان . ففى كل رباط مكتبة جدارية مفرغة فى طاقات من الحائط بها النسخ الامهات والمولدة . ويمكن لمن يزور رباط المنستير ان يشاهد مكتبته وهى عبارة عن غرفة كبيرة حولها مصاطب مبنية يجلس عليها المطالعون ، وفى جوانبها طاقات مفرغة فى الحائط يوضع فيها الكتب . وهذه الحركة الثقافية هى التى تفسر لنا توافر المصنفات المؤلفة فى العصر الذى نؤرخه ووجودها بالمغرب العربى اكثر من وجودها بالمشرق .

وبالجملة « فان الانسان فى ذلك الوقت يتطوع بالمرابطة على مدة هو حر فى تعيينها ، فاذا عينها صارت لزاما عليه . فالاستاذ يرابط من اجل التعليم احتسابا لوجه الله والطبيب يرابط من أجل مداواة المرضى ، والبريدى من اجل تنظيم البريد،

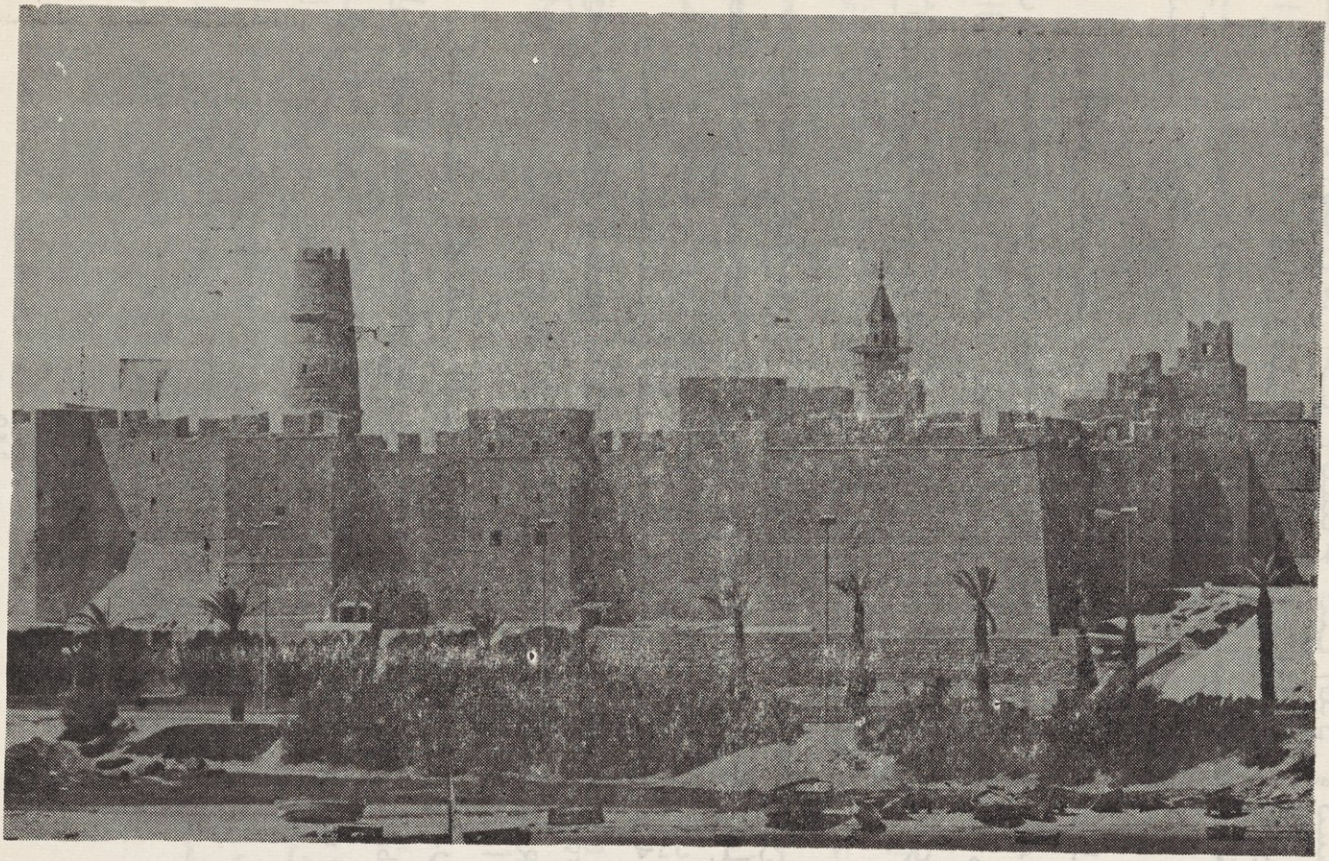

رباط المنستير

والنساخون يرابطون من اجل انتساخ كتب الدين وتيسيرها بين ايدى الناس بالمجان وهلم جرا ... حتى اذا جاء النفير هب الجميع الى الحرب » (شجرة النور الزكية للشيخ محمد مخلوف المنستيرى . تونس 1935) .

ان اقدم رباط شيده العرب بافريقية هو رباط المنستير الذى بناه الامير هرثمه بن أعين والى القيروان سنة 181 هـ . وهو ما زال قائم الذات الى هذا اليوم . ومن الاربطة التى نشاهدها اليوم رباطا سوسة : الرباط الاعلى (برج خلف الفتى الذى صار الآن متحفا وبه المنارة) . والرباط الاسفل (القصر) .

وقد عنيت حكومة الرئيس بورقيبة بترميم هذه الرباطات وبتحسينها حتى أصبحت تحفا اثرية على غاية من الروعة والجمال .

وقد افرد المستشرق الفرنسى جورج مرسى دراسة ممتعة ومدققة للرباطات وللدور الذى كانت تقوم به (G. Marçais notes sur les Ribats de Berbérie Mél. Basset II PP : 400-429).

كما خصص المهندس المعمارى الكسندر ليزين دراسة معمارية مستفيضة لرباطى سوسة والمنستير (Le Ribat de Sousse suivi de notes sur le Ribat de Monastir. Imp. La Rapide — Tunis 1956) .

## الفصل العاشر

# بيت الحكمة

لقد تطورت الحركة العلمية على عهد الدولة الاغلبية تطورا يدل على ما للافارقة من القدرة على الخلق والابتكار . فلم يقنعوا بالتعليم الابتدائى والثانوى والعالى بل تفرغ الكثير منهم الى الاختصاص فى الدرس والتأليف فى شتى ضروب العلوم من فلسفية وحسابية وفلكية وطبية وغيرها من الفنون الموصوفة بالرياضية .

ولهذا الغرض اسس الامراء الاغالبة اول جامعة افريقية للعلوم اطلقوا عليها اسم « بيت الحكمة » على غرار بيت الحكمة الذى اسسه العباسيون ببغداد .

من المتأكد ان هذه المؤسسة العلمية من مآثر ابراهيم الثانى الاغلبى والدليل الاول على ذلك ان احدا من الاخباريين لم يتحدث عن بيت الحكمة قبل عهد ابراهيم الثانى . والدليل الثانى هو ان جميع المؤرخين وأصحاب التراجم متفقون على ان هذا الامير كان شديد الولع بالعلوم الرياضية والحكمة الامر الذى حمله على انشاء بيت الحكمة . واما مقر بيت الحكمة الاغلبى فلم يكن فى

مدينة القيروان بل بمدينة رقادة التى ابتناها ابراهيم الثانى سنة 264هـ 878م . على انه لم يوجد بمدينة القيروان مكان يحمل اسم بيت الحكمة .

ليست لنا معلومات مدققة عن بيت الحكمة وعما احتواه من كتب وآلات ونفائس . ولربما مرد ذلك ما كان من النفرة بين علماء بيت الحكمة والمدرسة القيروانية السنية . فلهذا السبب اغفل رجال التراجم السنيون التحدث عن بيت الحكمة الاغلبى .

والغالب على الظن ان بيت الحكمة كان جزءا من قصر رقادة يحتوى على عدة غرف او مجالس اعد بعضها للمكتبة وبعضها للنسخ وبعضها للدرس والمناظرة وبعضها للرصد الخ...

كانت ارض المجالس مفروشة بالحصر واللباد والبسط القيروانية الشهيرة . واما الامير فكان يجلس على سرير يشرف منه على المناقشات والمناظرات التى كانت تدور بين العلماء بمحضره .

وكان العلماء والطلبة يختلفون الى بيت الحكمة لمطالعة المؤلفات او لنسخها .

وكان يشرف على نظام الدار قيمون مرتبون مهمتهم السهر على حراسة ما فيها ومناولة المطالعين ما يحتاجون من الكتب . ويرأس هؤلاء القيمين ناظر يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » واول من تولى هذه الخطة ابو اليسر ابراهيم الشيبانى .

كان الامراء الاغالبة يوفدون فى كل عام سفارة الى البلاط العباسى لتجديد العهد ولرفع الخراج السنوى (مقدمة ابن خلدون ص 171) · وكانوا يكلفون رئيس الوفد بان يشترى لهم انفس الكتب الموضوعة والمترجمة وبان يجلب الى رقادة فطاحل علماء ذلك العصر · فلذلك وجدت برقادة مصنفات من جميع الملل والنحل وفى مختلف العلوم والفنون · والى جانب ذلك وجد علماء اجلاء نازحون من جميع أقطار العالم الاسلامى ·

وعلاوة على ذلك فان الامراء الاغالبة وخاصة الثلاثة الاخيرين منهم كانوا يحسنون اللغة اللاطينية التى كانت متداولة فى افريقية على عهدهم · فلذلك نراهم يجتهدون فى ترجمة جمهرة من الكتب المحررة باللغة اللاطينية (طبقات علماء افريقية للخشنى · الجزائر 1332 هـ 1914 م صفحة 162) · وما يؤيد هذا ان (حسن الوزانى Léon l'Africain ) ذكر فى رحلته المشهورة انه رآى فى بلاد افريقية ترجمة كتاب (بلينوس Plinus) الرومانى فى علم النبات باللغة العربية · ويوجد الآن بمكتبة جامع القيروان نسخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الأمم القديمة » نسب وضعها الى القديس المسيحى (يرونيم الرومانى Saint Gérome) المتوفى سنة 420 هـ (يراجع الكتاب التذكارى للمستعرب ليفى بروفنسال باريس 1962 صفحة 175 وما بعدها) ·

وقد حدثنا الخشنى عن المناظرات التى كانت تدور ببيت الحكمة بين المتكلمين من أهل السنة وغيرهم من الفلاسفة فى مجالس رقادة بمحضر الامراء (طبقات علماء افريقية · الجزائر

1914 ص 120 ـ 121) . فمن يطالع تلك المناقشات الحادة احيانا يعلم ما كانت عليه الحركة الفكرية من العلو والتحرر فى آن واحد وما كان عليه الامراء الاغالبة من التسامح فى شؤون العقل .

ومن بين العلماء الذين اشتهروا فى بيت الحكمة الاغلبى نخص بالذكر الامراء الاغالبة الثلاثة الآخرين الذين اجتهدوا فى تاسيسه وسهروا على اعداده والقيام بنفقاته وحرصوا طوال مدتهم على بقائه حيا ناميا الى ان بلغ درجة الازدهار واتى اكله الشهى النافع . وهم ابراهيم الثانى (261 ـ 289 هـ) وعبد الله الثانى المتوفى سنة 290 وزيادة الله الثالث الذى تخلى عن الملك سنة 296 هـ.

كما يحسن ان نذكر وزيرهم عبد الله بن الصانع والحكيم البغدادى اسحاق بن عمران الذى علم الكثير من الافريقيين الفلسفة والطب والف كتبا كثيرة لم يصلنا منها الا كتاب المالنخوليا (La mélancolia) ـ والجدير بالذكر ايضا اسحاق بن سليمان الاسرائيلى المصرى وهو استاذ الطبيب الشهير احمد بن الجزار. وقد ألف اسحاق جملة من الكتب بالعربية وبالعبرانية ـ وممن اشتهروا فى بيت الحكمة آل الجزار ـ واما مدير بيت الحكمة فكان ابراهيم بن الشيبانى وهو بغدادى من تلاميذ الجاحظ وابى تمام والبحترى . وكان يدرس الادب ببيت الحكمة وله مؤلفات كثيرة فى الادب ـ ولا ننسى من بين فلاسفة بيت الحكمة ابابكر القمودى المشهور بالفيلسوف واسماعيل بن يوسف الملقب بالطلاء المنجم و الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد ، وغيرهم كثيرون .

لما انقرضت دولة بنى الاغلب سنة 296 هـ آل بيت الحكمة الى بنى عبيد الفاطميين الذين انتزعوا منهم الملك . فأصبح بيت الحكمة مركز اشعاع للدعوة الاسماعلية . ولما أنشأ عبيد الله المهدى مدينة المهدية سنة 308 هـ نقل اليها ما كان ببيت الحكمة من كتب وأثاث وآلات . فافل نجم رقادة الى الابد . وسكنت حركة بيت الحكمة وتعطلت رسالته الثقافية بل حولت الى حركة اسماعلية فهجره اهل السنة ونفروا منه . فاصبح اثرا بعد عين بعد ان اشع بعلومه وفلسفته طيلة اربعين عاما .

لئن انقرض بيت الحكمة التونسى حسا فان اشعة علومه الساطعة لم يخبأ سناها على مدى الدهور ذلك ان رواده وخريجيه تفرقوا فى أطراف البلاد وحملوا مشعله الى الآفاق المغربية البعيدة مثل مدينة فاس وقرطبة وصقلية وايطاليا ومنها الى اروبا .

فبيت الحكمة هو الذى اوجد النواة الاساسية للمدرسة الطبية القيروانية الشهيرة التى انتشر تأثيرها مدة ثلاثة قرون متوالية .

(Voir : En souvenir de la Médecine Arabe par le Dr. Slaïem Ammar. Imp. Bascone et Muscat - Tunis 1965 p. 58 et p. suivantes).

# الخلاصة

ان طرق التعليم وأساليبه التى كانت متوخاة فى مختلف المعاهد بافريقية العربية تبدو لنا اليوم بسيطة وبدائية ومنافية للمبادىء البيداغوجية احيانا . فلم تكن مركزة على دعائم نفسانية متينة فى الغالب بل كانت تعنى بالمادة العلمية اكثر من اعتنائها بالمربى . فلذلك كانت تعتمد الحافظة اعتمادا كبيرا ينطبق عليها قول ابن الوردى صاحب اللامية المشهورة :

قيمة الانسان ما يحسنه  اكثر الانسان منه أو أقل .

كانت الطريقة الالقائية هى الرائجة فى ذلك العصر . فكان الشيخ يلقى مروياته او موضاعاته على الطلبة وهم يدونون فى رقوقهم وكنشاتهم ما يتلقونه منه ثم يعرضون عليه ما دونوه للتصحيح والاجازة . كما انهم كانوا يتوخون المناظرة والمساجلة احيانا .

ومع ذلك فان هذه البيداغوجية قد انجبت ـ على علاتها ـ علماء فطاحل ومفكرين نبغاء ازدهرت بفضلهم المعرفة طوال الحقبة التى نؤرخها وما بعدها .

ان افريقية التى ظلت مهدا للحضارة على عهد قرطاجنة ، ومنبثقا للمدنية والعلوم والادب خلال العصر الرومانى، استأنفت مواصلة رسالتها الحضارية والانسانية فى العصر العربى .

فكانت موطن اشعاع للمعرفة طيلة العهد الاغلبى والفاطمى والصنهاجى غمر سنا علومها بلاد المغرب بما فى ذلك الاندلس وصقلية وايطاليا ، ومنها تسرب الى اروبا ، فكان احد اسباب نهضتها ٠

ان المؤلفات التى لا يحصى لها عديد والتى وضعها الافارقة فى جميع العلوم والفنون خلال العهد العربى لدليل واضح على نجاعة طرق التعليم واساليبه المتوخاة فى ذلك العصر ٠ وهى لجديرة بالبحث والاستقصاء حتى تستجلى معالمها وخفاياها ٠ فما توصلنا اليه فى بحثنا هذا الموجز الا قطرة من بحر ٠ وعلى الاجيال الصاعدة ان تنكب على دراسة هذا الجانب الهام من حضارتنا الذى ما انفك غامضا وفى حاجة ماسة للدرس والاستقصاء ٠

## الفصل الحادى عشر

## ابرز رجال التربية بافريقية الاسلامية

## عبد الرحمن بن زياد

ابو البقاء عبد الرحمن بن زياد بن انعم المعافرى الافريقى ، ولد سنة 64 للهجرة ، فعد لذلك اول مولود فى الاسلام بعد فتح افريقية وكان ابوه زياد من وجوه الجند العربى الذى قدم مع عقبة للمرة الثانية . رحل عبد الرحمن للمشرق للتفقه فى الدين فروى عن جماعة من التابعين ، وصاحب زمانا أبا جعفر المنصور العباسى قبل خلافته وزاولا العلم جميعا ، ثم رجع الى افريقية وولى القضاء العام بها وانتفع به جم غفير ، وعاد مرة اخرى للعراق واجتمع بابى جعفر المنصور وقد ارتقى للخلافة فعرض عليه المقام ببغداد فلم يقبل ، فسيره قاضيا على افريقية صحبة محمد بن الاشعث وبقى عبد الرحمن على القضاء الى ان توفى فى رمضان سنة 161 على عهد الامير يزيد بن حاتم ودفن رضى الله بمقبرة باب نافع من القيروان . ومن شعره يتشوق الى مسقط رأسه مدة اقامته بالعراق .

ذكرت القيروان فهاج شوقى وايـن القيـروان من العـراق

مسيرة اشهـر للعيـر نصـا وللخيـل المضمـرة العتـاق

فبلـغ انعمـا وبنى ابيـه ومن يرجى لنا وله التـلاقى

فـان اللـه لـو خـلى سبيـلى لجـد بنـا المسيـر الى مـزاق

ومن منثور كلامه وهو يدل عـلى عفته وورعه قـوله : « اذا رأيت الهدية دخلت دار القاضى فاعلم ان الامانة قد خرجت منها »٠

# أســـد بن الفـــرات

ابو عبد الله اسد بن الفرات بن سنان ـ مولده سنة 142 ـ وقـدم ابـوه القيروان مع الامير محمد بن الاشعث · سمع اسد بتونس من على بن زياد ثم ارتحل الى المشرق فى طلب العلم سنة 172 ، فلقى من اصحاب ابى حنيفة القاضى ابـا يوسف ومحمـد بن الحسن وزفر ، واخذ عنهم وعن امـام دار الهجرة مـالك بن انس « الموطأ » وعن عبد الرحمن بن القـاسم ، وعليـه دون كتـابـه « الاسدية » نسبة الى اسمه · ورجـع أسد الى افـريقية فتصدى للتدريس ونشر العلم فسمع منه خلق كثير منهم سحنون وغيره · وفى سنة 204 ولى اسد قضاء القيروان وبقى بهذه الخطة الى ان عزم زيـادة الله بن الاغلب على غـزو صقلية ، فطلب حينئذ منـه أسد الاذن فى الخروج الى الغزو كأحد الاجناد ، فعينه اميرا على الجيش، فقال أسد « اصلح الله الامير ابعد القضاء والنظر فى الحلال والحرام تعزلنى وتولينـى الامـارة ؟ » فقال له زيـادة الله : « انى لم اعزلك عن القضاء وقد وليتك الامـارة وهى اشرف من القضاء ، فانت قاض أمير » وخرج أسد فى عشرة آلاف مقاتل الى ثغر سوسة وقد خرج لتشييعه الامير واهل العلم ووجـوه الناس ولمـا ركب أسد ونشرت البنود والالويـة وضربت الطبول وصهلت الخيـول ورأى اعيان الامة مصطفة من حوله عـلى الرصيف وقف وقـال بأعلى صوته : « لا اله الا الله وحده لا شريك له · يامعشر المسلمين · ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفى هذا قط ، وما رايت ما ترون الا بالاقلام · فأجهدوا انفسكم وأتعبوا ابدانكم

فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة ٠»

ثم اقلع الاسطول وحل بساحل صقلية وقاتل أسد وكابد المشاق وقد تمادت عزيمته وثباته حتى فتح من الجزيرة مواضع كثيرة ٠

وتوفى اسد من جراحات كثيفة اصابته فى حصاره لمدينة (سرقوسة) عاصمة صقلية ، وذلك فى شهر ربيع الثانى 213 ودفن بمحل استشهاده رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجازاه عن الاسلام والمسلمين خير جزاء واوفره ٠

# الامـــام سحنـــون

ابـو سعيد سحنـون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، ولد بالقيروان سنة 160 وتلقى العلم بافريقية عن على بن زياد وأسد ابن الفرات ، ثم توجه فى طلب العلم الى المشرق سنة 188 ، فزار مصر والحجـاز والشام ، واخذ الفقه عن فطاحل تلك الامصار مثل عبد الرحمن بن القاسم وابن الماجشـون ووكيـع بـن الجـراح وغيرهم ، وعاد الى بلده سنة 191 ، فاظهر بها علم اهل المـدينة ومذهب مالك بن أنس . وهو اول من ركزه بافريقية تركيزا ثابتا. ولما اشتهر سحنون وذاع صيته راوده الامير ابو العبـاس احمد بن الاغلب حولا كاملا على خطة القضاء حتى قبل منه الولاية سنة 234 . على شروط منها اطـلاق يده فى تنفيـذ الاحكـام الشرعية عـلى اقاربه من بنى الاغلب ورجال دولته ، ومنها الـزام المتنازعين من البيت المالك بالحضور لديه مـع الخصوم ، فقبل احمد الشروط كلها وانتصب سحنـون للقضاء وباشر الحسبـة والمظـالـم بنفسه ووفى العدل حقه الى ان لقب (بسراج القيروان) .

ولم يمنع سحنون مباشرة الاحكام ، من بث العلم ونشره فكان يحضر مجلسه بجامع عقبه تـلامـذة مـن جميـع الاقطـار المغربية والاندلس يروون عنه أصول الدين وفروعه ، ولقد عدله نحو سبعمائة رجل بالافاق تخرجوا عليه .

وألف سحنون كتابا عظيما سماه « المدونة الكبرى » جمع فيه مسائل الفقه على مذهب مالك بن أنس .

وتوفى يوم 6 رجب سنة 240 فى دولة محمد بن الاغلب ، ودفن بالقيروان وضريحه رحمه الله مشهور للخاص والعام .

وسمعة هذا الحبر ذائعة فى العالم الاسلامى شرقا ومغربا .

## محمد بن سحنـون التنـوخى

اول عربى كتب فى التربية هو محمد ابن الامـام سحنـون التنوخى القيروانى المولود بالقيروان سنـة 202 هجـرية والمتوفى بالساحل (سقانص) سنة 256 وقد دفن بجانب ابيه بالقيروان ٠

تلقى محمد بن سحنـون تعلمـه الابتـدائى والثـانـوى بالقيروان فسمع عن أبيه وعن الـراوية موسى الصمادحى وعن عبد الله بن ابى حسان اليحصبى تلميذ مالك. وجريا على عادة ابناء جلدتـه ارتحل محمد الى المشرق ثم رجع الى القيروان مملوء الوطاب فانتصب للتدريس وقد سمع عنه علماء كثيرون ٠

الف محمد بن سحنـون كتبـا كثيرة احصى منها الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ما يربـو عـلى العشرين مصنفـا فى مختلف العلـوم (كتـاب آداب المعلمين صفحة 14) ٠

ومن بـين الكتب التى دونهـا محمد بن سحنون « كتـاب آداب المعلمين » الذى نشرتـه اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العـربية سنـة 1348 هـ 1929 م (مطبعة العرب ٠ تونس) ٠

وقد قدم الاستاذ عبد الوهاب لهذا الكتاب مقدمة ضافية وعلق عليه تعليقات مدققة جـد مفيدة

وكان عثر المؤرخ التونسى عـلى مخطوط هذا الكتـاب فى خزانة المرحوم بلحسن النجار مع مخطوطـات اخـرى « والنسخة

المشار اليها ترجع الى القرن الثامن الهجرى مكتوبة بخط نسخى افريقى جيد ودقيق جدا يقع فى اثنتى عشرة صفحة ٠»

لقد تعرض الكثير من القدامى الى هذا الكتاب ونسبه عبد الرحمن بن خلدون خطأ الى محمد بن ابى زيد (المقدمة ـ الفصل 32 من الكتاب السادس) ٠

يشتمل « كتاب آداب المعلمين » على عشرة ابواب نستعرضها على التوالى :

1) ـ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز ٠
2) ـ ما جاء فى العدل بين الصبيان ٠
3) ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى ٠
4) ـ ما جاء فى الآداب (العقاب)
5) ـ ما جاء فى الختم (من حيث الاجر)
6) ـ ما جاء فى القضاء بعطية العيد ٠
7) ـ ما ينبغى ان يخلى الصبيان فيه (العطل المدرسية)
8) ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان ٠
9) ـ ما جاء فى اجرة المعلم ٠
10) ـ ما جاء فى اجرة المصحف (1)

1) لزيادة التفصيل انظر المقال الذى نشره المؤلف بالعدد 34 من النشرة التربوية للتعليم الابتدائى . نوفمبر 1964 .

# ابو اليسر الشيبانى

ابراهيم بن محمد الشيبانى، يكنى بأبى اليسر ويعرف بالرياضى « الكاتب اصله من بغداد وبها نشأ وقرأ على جلة من محدثيها وفقهائها ، وتتلمذ الى كبار أدباء عصره كالجاحظ ، والمبرد ، وثعلب ، وابن قتيبة واخذ عنهم مصنفاتهم ، ولقى من علية الشعراء : ابا تمام ، والبحترى ، وعلى بن الجهم وغيرهم وروى عنهم دواوينهم مباشرة ، وجالس من الكتاب المشاهير : سعيد بن حميد ، وسليمان بن وهب ، واحمد بن أبى طاهر وسواهم . ولما اكتمل ادبه تاقت نفسه الى الترحال فقصد اولا الاندلس على طريق البحر ، ونزل على اميرها محمد بن عبد الرحمن الاموى بقرطبة ، وطاف فى انحاء الجزيرة الاندلسية ، ثم ركب البحر الى افريقية وقصد اميرها ابراهيم الثانى فأكرم وفادته واتخذه لرئاسة ديوان الرسائل ، ومن ذلك الحين استقر الشيبانى بافريقية واتخذها دار قرار ، وباشر وظيفته بخبرة زائدة ووقار، واستمر على وجاهته ايام عبدالله الثانى ، فلما آلت الامارة الى زيادة الله الثالث ترقت به الحال الى رئاسة « بيت الحكمة » مع المحافظة على زعامة ديوان الانشاء ، ولم يزل محل العناية الكاملة فى مناصبه العالية ، يفيد ويدرس الادب الى ان انصرمت دولة الاغالبة .

وروى عنه الادب ووسائل الترسل عدد من ابناء افريقية منهم : ابنه يزيد ، وابو جعفر الكاتب ، وعبد الله الصانع ولا سيما تلميذه المختص بصحبته ابو سعيد الصيقل الآتى ذكره .

ولم يزل ابو اليسر بالمنزله الرفيعة الى ان ختمت انفاسه يوم الاحد 15 جمادى الاولى من سنة 298 هـ (يناير 911 م) وله من العمر خمسة وسبعون عاما ، ودفن بمقبرة باب سلم بالقيروان.

## ابو الوليد المهرى

—«o»—

أبو الوليد المهرى شيخ اهل اللغة والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم فى زمانه عليهم ، وصفه أبوبكر الزبيدى الاندلسى فى طبقاته ، فقال : « كان من احفظ الناس لانساب العرب واشعارها ووقائعها وايامها ، وكانت اشعار الجاهلية المشروحة تقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها ، فلما دخلت المشروحات من المشرق نظر طلبة العربية والنحو فيها وفيما كانوا رووا عنه منها فلم يجدوا فى شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح، ولا وجدوا عليه فى روايته وتفسيره شيئا من الخطأ ، وكان لقى جماعة من العلماء بالعربية والمعروفين بالرواية منهم أبو مالك ابان بن الصمصامة ابن الطرماح الشاعر الافريقى ، وعياض بن عوانة الكلبى ، وقتيبة النحوى وكثير من الاعراب منهم أبو المنيع الاعرابى وغيرهم . »

عمر المهرى طويلا وتوفى خلال شهر رمضان سنة 256 هـ 870 م . اى فى اواسط دولة بنى الاغلب .

# سعيد ابن الحداد

سعيد بن محمد بن صبيح شهر بابن الحداد الغسانى ، ابو عثمان

من كبار المتكلمين الافريقيين فى عصره ان لم نقل اشهرهم واعلمهم واذكاهم ، درس فى اول امره العلوم الدينية وأخذ عن الامام سحنون وغيره ، ثم مال بكليته الى العلوم الفلسفية واتقن فن الكلام والجدل اتقانا كاملا حتى أصبح لا ينازعه فيه منازع، وتتلمذ له جماعة كبيرة من صغار معاصريه واقتدوا بسلوكه وآرائه ، فكان هو رأس المدرسة الكلامية بالقيروان ، ولم يتقيد مدة حياته بتقليد مذهب من المذاهب ، قال الخشنى عند التعريف به :

« كان مذهبه النظر والقياس والاجتهاد ، لا يتحلى بتقليد احد العلماء ويقول : ـ انما ادخل كثيرا من الناس الى التقليد نقص العقول ودنا الفهم ـ وكان يقول : كيف يسع مثلى ممن اتاه الله فهما ان يقلد احدا من العلماء بلاحجة ظاهرة (I) .

ولابى عثمان مؤلفات كثيرة فى الجدل والرد على المخالفين من اهل المخارق والزندقة ، منها كتاب « المقالات » رد فيه على اهل

I) كتاب رياض النفوس ج 2 ص 32 (خط)

المذاهب اجمعين ، وكتاب « ايضاح المشكل » ـ وكتاب « الامالى » وكتاب « الاستواء » وكتاب « الاستيعاب » وغير ذلك ٠

مولده فى سنة 219 هـ (834) م وكانت وفاته بالقيروان فى ذى القعدة من سنة 302 هـ (مايه 915 م) ودفن بمقبرة باب سلم، وقبره معروف ٠

وبالجملة فان سعيد بن الحداد كان فى وقته رأس « المدرسة الكلامية » فى افريقية التونسية ، والآخذون عنه ، والمقتدون بمذهبه وآرائه من ابناء البلاد لا يعدون كثرة ٠

# ابـن الجـزار الطبيب

أبو جعفـر أحمد ابراهيم بن أبى خالد يعرف بابن الجـزار الطبيب . ولد بالقيروان أوائل القـرن الرابـع ونشأ فى عائلة اشتهر أفرادها فى الطب . وتلقى أحمد علوم اللغة والفقه ثـم تخـرج فى الفنون الرياضية عن كبير الاطبـاء بافريقية (اسحاق ابن سليمان الاسرائلى) حتى برع وفاق استاذه ، وقد يعلو الفرع أصلـه .

قال الحكيم ابن جلجل : « كان أحمد قد أخذ لنفسه مأخذا عجيبا فى سمته وهديه ولم يحفظ عنه بالقيروان زلة قط ولا أخلد الى لذة ، وكان يشهد الجنائز والاعراس ولا يأكل فيها ، ولا يركب قط الى احد من رجال الدولة ولو الى السلطان » وذلـك لنزاهـة نفسه وانقطاعه لعلمه وعمله وكان لـه دكان يقبل فيـه العائدين ويعالج فيه المرضى . وعلا صيت ابن الجـزار وذاعت شهـرتـه بالافاق شرقا ومغربا . وكانت وفاته بالقيروان سنة 389 عن سن تناهز الثمانين عاما قضاهـا فى النفع العـام وخدمة الانسانية . وترك ابن الجزار تآليف معتبرة ضـافية وضعها فى فـن الطب ، منها كتاب فى عـلاج الامـراض سمـاه « زاد المسافـر وقـوت الحاضر » وكتـاب طب الفقراء والمساكـين » وآخـر « فـى الـذم والتحذير من اخراج الدم لغير حاجة » وكتـاب « سياسة الصبيان وتدبيرهم » وله فى التاريخ والاخبـار مصنفـات جليلـة منهـا « التعريف بصحيـح التاريـخ »ومنها « اخبار الدولة الفاطمية »

وغير ذلك من المصنفات العلمية التى يطول تعدادها ، يكفيك شاهدا انه وجد فى مخلفه خمسة وعشرون قنطارا من الكتب الطبية كلها بخط يده ٠

ولقد اعتنى علماء اروبا من قديم الزمان بتآليف ابن الجزار وقدروها حق قدرها ، فترجموا جانبا وافرا منها الى اللغة اللاطينية وغيرها لاهمية ما احتوت عليه من الافادات الجمة ٠ ولذلك يحق لنا الافتخار بهذا الطبيب التونسى الذى رفع ذكر بلاده بمآثره الجليلة ٠

# أبـو الحسن القـابسى

هو أبـو الحسن عـلى بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بالقابسى او بابن القابسى ٠

ولد ابو الحسن بالقيروان سنة 324 هـ (935 م) وبها تـربى وتعلـم وعلم ، وبها مـات ودفن سنة 403 هـ (1012) م٠

لقد اختلف اصحاب التـراجم فى نسبته : « القابسى » او « ابن القابسى » ٠ فذهب القاضى عياض الى « انه لم يكن قابسيا وانما كان لـه عم يشد عمامته شد القابسيين ، فسمى بذلك ٠ وهو قيروانى الاصل »٠ ونقد صاحب معـالم الايمان هذا القـول فنسب ابا الحسن الى قرية المعـافـريين التى كانت ضاحيـة من ضواحى قابس ٠ وقد كانت هذه القرية خالية عندما ولى ابن ناجى قضاء قابس فى غضون القـرن الثامن للهجرة ٠

وقد ترجم لابى الحسن القابسى متـرجمون كثيرون نخص بالذكر منهم : ابن العماد الحنبلى فى كتاب « شذرات الذهب فى اخبار من ذهب » ، وابن ناجى القيـروانى فى كتـاب « معـالم الايمان فى معرفة اهل القيروان » ، والقـاضى عيـاض صاحب « ترتيب المـدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك »٠ كما ترجم له ايضا : السيوطى فى « طبقـات الحفـاظ » ، وابـن فرحون فى « الديبـاج » ، وابن خلكان فى « وفيات الاعيـان » ، وغيرهم كثيرون ٠

تلقى ابو الحسن القابسى العلم والحديث عن رجال القيروان واشهرهم : ابو العباس الابيانى التونسى وأبو الحسن الدباغ وابو محمد الحجاج وغيرهم ٠

وعليه تفقه خلق كثير من ابناء افريقية ومن المغاربة والاندلسيين النازحين الى القيروان فى القرن الرابع ٠ واشهر تلاميذه ابو عمران الفاسى وابو القاسم اللبيدى وابوبكر عتيق السوسى وغيرهم ٠

وذكر القاضى عياض انه رحل الى الشرق فحج وسمع بمصر ومكة من حمزة الكنانى وأبى الحسن الثانيانى ٠٠٠ وكانت رحلته الى الشرق سنة 352 هـ٠ وكان ابو الحسن جامعا لصفات الكمال ، فقال عنه السيوطى : « كان حافظا للحديث والعلل بصيرا بالرجال عارفا بالاصلين رأسا فى الفقه ضريرا زاهدا ورعا »٠

ولابى الحسن القابسى مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسة عشر ذكرها القاضى عياض فى « ترتيب المدارك »، وهى كلها فى الفقه والحديث والمواعظ الا واحدا منها افرده القابسى لشؤون التربية ونعنى به كتاب : « الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين »٠

قد صنفها فى النصف الثانى من القرن الرابع ولم يبق الاصل وانما بقيت منه نسخة خطية فريدة من نوعها نسخت عام 706 هـ بخط مغربى واضح جميل توجد الآن بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 4595 وعدد ورقاتها 97 (1) ٠

1) لزيادة التفصيل انظر المقال الذى نشره المؤلف بالعدد 46 من النشرة التربوية للتعليم الابتدائى بتاريخ فيفرى 1966 .

# الحسن بن رشيـــق

أبو على الحسن بن رشيق الازدى القيروانى ، حامل لـواء الادباء التونسيين . ولد بمدينة المحمدية حوالى سنة 385 وبها تلقى علم العربية والادب • ثم لما رأى من نفسه الميل الشديد والرغبة لطلب العلـوم والاجتمـاع باهل الفضل ارتحل الى القـيروان سنة 406 ، فقرأ على اساتذة ذلك العصر كأبى عبد الله محمد بن جعفـر القزاز كبير النحويين وعبد الكريم النهشلى وغيرهما ، واجتهد فى اقتناء المعارف والفضائل حتى عرف ، واذ ذاك أدخله المعز الصنهاجى فى زمرة جلسائه الادباء ولم يزل الحسن يشتهر بقصائده الفائقـة وتآليفه الرائعـة الى ان حاز رئاسة شعراء زمانه وصار فيصلهم المعتمد • والتحق ابن رشيق بعد موت المعز بالامير تميم وخدمـه باشعاره فكان له خير نديم واصدق مصاحب وفيه يقول مادحا :

أصح وأقوى ما رويناه فى الندى

من الخبر المـاثور منذ قـديـم

احاديث ترويها السيول عن الحيا

عن البحر عن جود الامير تميـم

ثم انتقل الحسن بعد ذلك الى صقلية وسكن مدينة (مازره) الى ان ادركته منيته ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة 456 •

وهاك شذرة من نثره كتب بها الى بعض اخوانه فى مدح السفر والارتحال :

« مثل الرجل القاعد ، اعزك الله كمثل الماء الراكد ، ان ترك تغير ، وان تحرك تكدر · ومثل المسافر ، كالسحاب الماطر ، وهؤلاء يسمونه رحمة ، وهؤلاء يدعونه نقمة · فاذا اتصلت أيامه: ثقل مقامه ، وكثر لوامه ، فاجمع لنفسك فرحة الغيبة ، وفرحة الاوبة · والسلام · وأنشد :

غب عن بلادك وارج حسن مغبة

ان كنت حقا تشتكى الا قلالا

فالبدر لم يجحف به ادباره

ان لا يسافر يطلب الاقبالا

وقد ترك ابن رشيق ماثرة علمية ادبية جسيمة جدا فاق بها اهل عصره · فمن تآليفه السائرة : « كتاب العمدة » فى صناعة الشعر ونقده وعيوبه و « قراضة الذهب فى نقد اشعار العرب » وكتاب « انموذج الزمان فى شعراء القيروان » عدا ما صنفه فى النحو واللغة وفن التاريخ مما تفتخر به المملكة التونسية (1) ·

---

1) انظر كتاب بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب (المطبعة التونسية 1330 هـ)

## أبـو عبد الله المكفـوف

أبو عبد الله المكفوف الاموى ، تلميذ ابى الـوليد المهـرى المتقدم وخليفته فى زعامة دراسة العربية وتفسير الدواوين وايام العرب واخبارها ، قال الزبيدى :« وعليه قرأ الناس المشروحات، واليه كانت الرحلة من جميع افريقية والمغرب ، وكان يجلس مع حمدون النعجة فى مكتبه ، فربما استعار بعض الصبيان كتابا فيه شعر أو غريب أو من اخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فاذا ألح عليه اعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول : اقرأه على ، فاذا فعـل ، قال : اعده ثانية ، ثم يقول : رده عـلى صاحبه متى شئت فتعال امليه عليك » .

وتوفى المكفوف سنة 308 هـ 920 م فى ابتداء دولة عبيد الله المهـدى .

## ابـن الـــوزان

ومن الاعلام الافريقيين الذين كـان يشار اليهم بالبنـان : ابن الـوزان ، وهو ابو القاسم ابراهيم ابن عثمان بن الوزان .

قال الزبيدى : « وهو يعد امام الناس فى النحو ، وكبيرهم فى اللغة وعظيمهم فى العربية والعروض مـع قلة ادعـاء ، وصدق لهجة ، وخفض جناح ، ونقاء صدر ، وانتهى من علم النحـو الى ان

كان أبو محمد المكفوف اذا وردت عليه مسائل من النحو سأله الاجابة عنها ، وأقر له بالتقدم فى ذلك ، وانتهى من اللغة العربية الى ما لعله لم يبلغه احد قبله ، وأما فى زمانه فما يشك فيه احد ، يحفظ كتاب (العين) للخليل ابن احمد ، وكتاب (غريب المصنف) لابى عبيد ، وكتاب ابن السكيت وغيرها ، وحفظ قبل ذلك كتاب سبويه ثم كتاب الفراء (١) .

وتوفى ابن الوزان سنة 346 هـ 957 م .

## القـــزاز

ومنهم محمد بن جعفر القزاز التميمى ، شيخ اللغة ومسند الأدب فى افريقية ، رحل الى المشرق فى صدر الدولة الفاطمية وروى عن أساطين اللغة والادب فى عصره ، وقد أورد لنا تلميذه ابن رشيق سنده فى رواية اللغة واخبار الشعراء حيث يقول فى غير ما موضع من كتاب (العمدة) :

اخبرنا شيخنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن ابى على الآمدى ، عن على بن سليمان الاخفش . (ويقول تارة اخرى) انشدنا ابو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن ابى الحسين ابن ابراهيم الآمدى ، عن ابى دريد ، عن ابى حاتم السجستانى ، عن ابى زيد الانصارى ...»

١) طبقات النحاة للزبيدى

ومن هنا يتضح كيف انتقلت رواية الاخبار الادبية والاشعار من جهابذة المشرق الى ابناء افريقية .

وكانت طريقة القزاز فى مجلس دروسه ان يلقى على الطلبة مشكلات المسائل اللغوية ، ويطرح عليهم أبيات الشعر العويصة ، ويطلب منهم فك معانيها وتفسير الفاظها حسبما ذكر ذلك ابن رشيق (1) .

ومات القزاز بالقيروان سنة 412 هـ (1020 م) بعد ان وضع اكبر معجم لغوى عرف وقتئذ فى اللغة وهو كتاب (الجامع فى اللغة) .

## ابراهيم الحصرى

ومن يجب ذكره مع من تقدم من كبار الاساتذة فى الادب : ابو اسحاق ابراهيم الحصرى مؤلف « زهر الآداب » وغيره ، فقد اورد ابن رشيق ايضا فى ترجمته العبارة الآتية : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم ، وشرف لديهم » .

---

1) العمدة ـ 1 ـ 211 ومعجم الادباء 6 ـ 469 وغير ذلك .

ومات الحصرى بالمنصورية ـ صبره ـ حذو القيروان ـ سنة 413 هـ (1021 م) على التحقيق وامثال هؤلاء الشيوخ من قادة الفكر الادبى وعمده ورواته ونقاده لا يعدون كثرة ٠

نقلنا اغلب هذه التراجم عن المرحوم الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ٠

# الخاتمة

ولاختتام مبحثنا هذا لم نجد قولا اصح نظرا ولا أبلغ تعبيرا ولا اكثر سدادا من قول المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة حيث قال :

« ولا تكون التربية كاملة اذا اقتصرنا على القيام بعملية التحرير لطاقات الانسان العقلية والشعورية والعلمية ، بدون ان تهدى الى التصرف الرشيد فى تلك الطاقات ، والى كيفية تسخيرها لخدمة المجتمع وجلب الخير للانسان ورفع منزلته المادية والمعنوية . وعلى هذا الاساس فان تحرير الانسان بتحرير طاقاته الكامنة لا يكون غنما ولا يكون رقيا ، الا اذا استعملت تلك القوى فى الخير » .

**الحبيب بورقيبة (خطاب يوم 30 جوان 1967)**

# فهرست الموضوعات


| الصفحة | |
|---|---|
| | **الباب الاول** |
| 9 | **التربية بافريقية فى عصور ما قبل الاسلام** |
| 9 | **الفصل الاول** : التربية عند البربر |
| 20 | **الفصل الثانى** : التربية فى العهد البونقى القرطاجنى |
| 28 | **الفصل الثالث** : التربية بافريقية الرومانية |
| 51 | **الفصل الرابع** : رجال الفكر الافارقة فى العهد الرومانى |
| | **الباب الثانى** |
| 74 | **التربية بافريقية الاسلامية** (لمحة تاريخية) |
| 76 | **الفصل الاول** : الفتح العربى فتح ثقافى |
| 83 | **الفصل الثانى** : اغراض التربية عند المسلمين |
| 88 | **الفصل الثالث** : برامج التعليم فى القرون الخمسة الاولى للهجرة |
| 97 | **الفصل الرابع** : مراكز الثقافة بافريقية (خلال القرون الخمسة الاولى للهجرة) |
| 102 | **الفصل الخامس** : التعليم الابتدائى (الكتاب) |
| 130 | **الفصل السادس** : التعليم بالمساجد |
| 145 | **الفصل السابع** : الرحلة فى طلب العلم |
| 150 | **الفصل الثامن** : المكتبات |
| 157 | **الفصل التاسع** : الرباطات |
| 161 | **الفصل العاشر** : بيت الحكمة |
| 168 | **الفصل الحادى عشر** : ابرز رجال التربية بافريقية الاسلامية |
| 190 | الخاتمة |

LA
1816
.T94
1900z
v.1
c.1